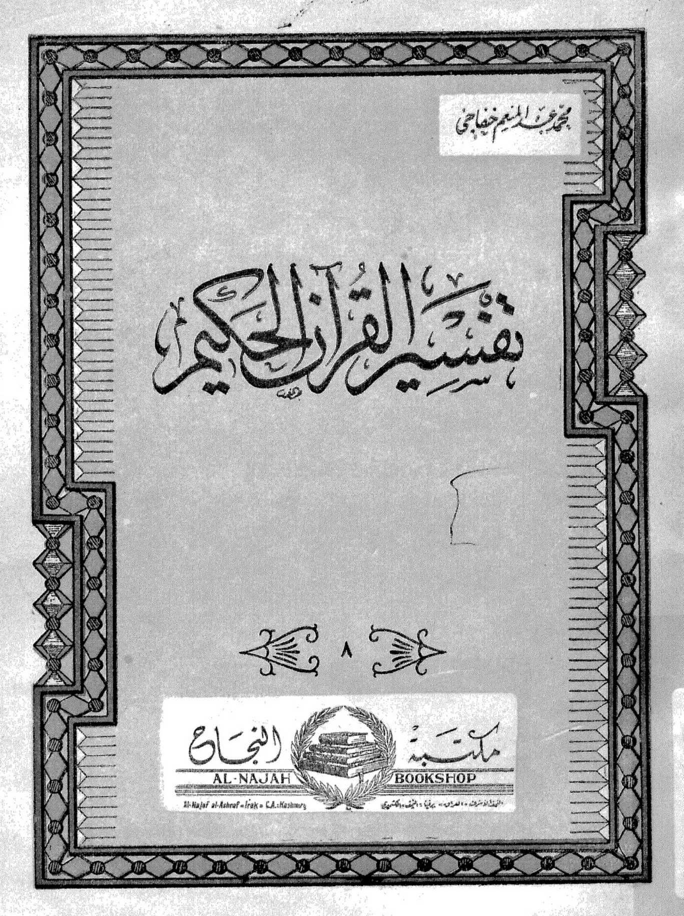

محمد عبد المنعم خفاجي
تفسير القرآن الحكيم
٨
مكتبة النجاح
AL-NAJAH BOOKSHOP
Al-Najaf al-Ashraf - Irak - C.A.: Kashmery

محمد عبد المنعم خفاجي



أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٨)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ــ تليفون : ٥٠٨٥٢

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

تصدير

اللهم إنا نستعينك، ونستهديك، ونستغفرك، ونتوب إليك، ونعوذ بك من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، بك الحول والطول، ومنك العون والهداية، لك الحمد والثناء، وإليك الدعاء والنداء، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد . . فهذا هو الجزء الثامن من هذا التفسير الجديد لكتاب الله، الذى يخرج فى ظلمات العصر المادى، وبين سحب الضلالات الكثيفة المحيطة بالناس من كل جانب؛ وخلال دعوات ينفخ فيها الشيطان، ليصل دويها إلى كل أذن، وليردد نداءها كل لسان، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . وهى دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجودية والمادية، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد فى دين الله، والكفر بشرائع السماء، والخروج على رسالات الأنبياء، ويتمادى بعض هؤلاء الدعاة، فينكرون وجود الله، ويشككون فى القيم الإنسانية العليا، ويحاربون الإيمان بالدين وبالنواميس الإلهية العظيمة، ويفتخرون بما يدعون إليه، فى الوقت الذى صمت فيه لسان الحق، وسكت فيه دعاة الخير والهدى، ونام الحراس على تراثنا الروحى، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة.

فى وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس، ولسان حق يدعو إلى مايدعو الإسلام وكتابه الكريم.

وتفسير تعاليم السماء، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الحكيم، وتقريب أصولها، وشرح أهدافها، وتوضيح مراميها، وتقريب معانيها؛ كل ذلك جهد مبذول، أقدمه بين يدى هذا التفسير، داعياً الله عز وجل أن يهدى به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وما توفيقى إلا بالله ؟

تمهيد

(١)

كان المسلمون منذ بدأوا حياتهم الحافلة ، بعد أن انبثق نور الإسلام وبزغ على العرب فجر عهد جديد ، فى كفاح ونضال وجهاد مستمر : حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب فظفروا ظفرا مؤزرا « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » واكتسحوا الدول والأقطار ناشرين لهداية الله مؤيدين بروحه وأمنه ، حتى انتشر الإسلام فى كل مكان ، وعم ضوؤه الآفاق.
وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى بهرت الناس ، وحيرت المفكرين ، لأنه نصر خارق ، شمل جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » فشملت الدولة الإسلامية أكثر أمم العالم المعروف آنذك ، وكانت العواصم الإسلامية هى محور السياسة العامة ، ومحط أقطار الناس ، والنظم الاقتصادية التى شرعها الإسلام كانت هى النظم السائدة بين جميع هذه الشعوب ، والثقافة الإسلامية كانت هى المنهل العذب الذى ترنو إليه العقول والعيون ، ويستمد منه الناس ثقافتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم ، والنظام الاجتماعى الذى وضعه الإسلام وكفل به التضامن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين فى الله ، هذا النظام الرائع هو الذى كانت تحلم بأن تحيا فى ظلاله امبراطوريات كسرى وقيصر وشارلمان ، والذى ارتمت فى أحضانه كثير من البلاد والأمم ، وكذلك مناهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتا هما السائدتين فى البلاد الخاضعة لنفوذ الإسلام . فوق أنهما من الآمال العزيزة التى كان يحلم بها وبالعيش فى ظلالها الملوك والأمراء والعلماء

والعامة فى جميع الأقطار . هذا التقدم العظيم والروح الوثاب ، والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه . وشريعة الإسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف . . . فمبادىء الإسلام كانت هى السبب الأول فى نشره وارتماء الأمم فى أحضانه .

(٢)

لقد حارب الإسلام الضعف بجميع صوره وألوانه .. حاربه فى الفرد . فدعا إلى أن يكون المسلم قويا عزيزاً كريماً كما يقول الرسول الكريم : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » ، ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » أى المعطى خير من السائل ، ودعا إلى العمل والجهاد فى سبيل العيش : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقدس حرمة الأموال والأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .. وحاربه فى المجتمع ، ليقضى على الرذائل والشرور ، وعاقب عليها عقاباً صارماً ، وأمر بشتى الفضائل الاجتماعية ، التى تكسب المجتمع قوة وأمناً وطهراً وخيراً ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى ، تصور لك آداب الإسلام وأصول دعوته ، وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الإسلام ، وهى كما يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وكما جاء فى الأثر : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير ، والمحافظة على حقوق الناس وتعود الإيثار والبر والخير والرحمة والتعاون ، ومقت الإثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصابات ، ونشر الإنصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعاً ، ودعا الرأى العام الذى ربى على أصول دعوة الإسلام إلى أن يكون قوياً جريئاً ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقف فى وجه الظلم والطغيان . وحارب الضعف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها ، والأمين على مصالحها ، والذائد الحامى الذمار عن أحسابها

وشرفها وكرامتها ، والحاكم العادل الذى ينشر الأمن ، ويبعث الرحمة ، ويسوى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه . ودعا الناس ـ مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية القوية ـ إلى إخوة إنسانية عامة شاملة ، لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهذا كله هو السبب فى مجد المسلمين الأولين وسيادتهم ، إذ آمنوا بهذه المبادىء ونهجوا على طريقها فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب فى انتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة فى جميع الأقطار والأمصار . .

(٣)

وقد بدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الإسلام بقليل، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه فى المدينة ، وأخذ الاستقرار الروحى والأدبى والفكرى والاجتماعى ينتشر فى جزيرة العرب ، وانتفع أهلها بتوجيههم ـ بفضل الإسلام ـ إلى الحق والخير . ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل ، فتعهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية فى العالم الإسلامى . وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى مابلغته دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية . ولقد تألقت أضواء الحضارة الإسلامية فى شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس، وباختلاط الأوربيين والشرقيين فى الحروب الصليبية وسواها . وإذا كان لكل حضارة مبادىء وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فإن الحضارة الاسلامية تقوم على مبادىء خالدة ، لم يصل إليها العقل البشرى من قبل ، ولم يستطع العالم فى القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ ما يماثلها دستورا له فى الحياة . وهى مبادىء الإسلام ، وقبس من نور الله ، وتراث من حكمته ، والإنسان خليفة استخلفه الله على الأرض ، وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له ، يعبده ويطيعه . ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه فى كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو أخفى ، « قل إن صلاتى

ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . ولا شك فى أن ذلك يكسب الإنسان صفاء فى العقيدة ، ونورا فى الصدر ، وطهرا فى القلب ، واعتزازا بالنفس والعمل الكريم ، ورضاء بأحكام الله وقضائه « له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه بكل شيء عليم » ، وينظر الإسلام إلى المجتمع ـ بجميع عناصره وطبقاته ـ على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاونا وثيقا فى الحياة ، يعطف الغنى على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير ويدفع كل بالتى هى أحسن ، وهل أبلغ فى التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » وقول الرسول الكريم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » . والراعى يقيم العدل ويزن بالقسطاس ، ويسوى بين الناس ، ويستشير فى أحكامه أولى العقل والتفكير ، وينشر الأمن والسلام بين الرعية ، لا يقر له قرار حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، ويقضى لكل ذى حاجة حاجته ، ويرد عن كل مظلوم ما لحقه من ظلم وطغيان . والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ، يكفل له الإسلام الأمن والسلام ، فى ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكرى والعقلى والروحى والمادى ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله ؛ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية والروحية والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات ، ورقى الأمم والشعوب ، مما قضى على الهمجية والوحشية فى عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل . والأهداف الأولى لهذه المبادىء كلها فى نظر الإسلام ، هى نشر أفكار الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة والسلام . ليعيش الناس جميعاً فى ظلال وحدة مجتمعة فى الأفكار والأهداف والمبادىء والغايات ، فى ظلال عالم موحد تسوده

الطمأنينة والأمن والسلم ، وفى حضارة مشتركة غايتها الإخاء بين الروح والمادة والعقل والجسم، والواجب والحق والإيثار والإثرة .

(٣)

وفى مطلع هذا الجزء ـ الثامن ـ من كتاب الله الحكيم ، نقف متأملين متعجبين : لعظمة إعجاز القرآن الكريم ودفاعه عن عقيدة التوحيد، وعن دين الصفاء والسلام والإسلام ، ولجلالة حجته فى إبطال الشرك وفى الرد على المشركين ... إن الإسلام دين التوحيد والسلام ، وهو رسالة الله إلى البشرية جميعاً ، وهذا القرآن ما هو إلا كتاب الرسالة ، ومعجزة الرسول ، وهو تأييد إلهى لمحمد عليه السلام ولرسالته .. وهنا فى هذا التفسير تتابع استجلاء حقائق القرآن الكريم وأصوله فى تقرير التوحيد ، وفى الدفاع عن دين الله ، وفى محاجة الشرك والمشركين . . ومن أصدق من الله حديثا ، وما توفيقى إلا بالله .

تفسير آيات الجــــزء الثامن

من كتاب الله الكريم

(١)

تتمة سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير آيات الربع الأول

١١١ — وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ .

١١٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

١١٣ — وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ .

هذه الآيات الثلاث هي مطلع الربع الثامن الذى يشمل بعضا من سورة الأنعام وبعضا آخر من سورة الأعراف ، وسورة الأنعام كما سبق أن ذكرنا من السور المكية الطوال ، وهي في محاجة المشركين ، وفي إبطال الشرك ، وفي الرد على افتراءات مشركي مكة وغيرهم ، وفي تقرير عقيدة التوحيد وإثباتها ، وهي سورة كلها دفاع عن الرسالة والرسول .

والآيات الثلاث هذه هي رد على اقتراحات المشركين وإبطالها ، وتفنيد لحججهم الواهية ، وأسئلتهم المتداعية ، قالوا : لو أنزل عليه ملك بالرسالة فشاهدناه وهو في صورته الملكية عيانا ، ورأيناه يبلغ الرسالة ، فقال الله عز وجل فيما سبق ، « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » وقال عز وجل : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وجمعنا لهم

الناس وغير الناس جميعا ، كي يعرفوا صدق الرسول وصواب الرسالة ، وليؤمنوا بالإسلام والقرآن ، ما كانوا ليؤمنوا ، ولكن أكثر هؤلاء الناس جاهلون يجهلون الحق ويعادونه ومن جهل شيئا عاداه وعانده ؛ والآية الثانية معناها أن الله عز وجل جعل لكل نبي أعداء من شياطين الإنس والجن ، يوسوس بعضهم لبعض ، ويوحي بعضهم إلى بعض ، ويموه بعضهم لبعض زخرف القول غرورا وباطلا وكذبا ، ولو شاء الله ما فعلوا ذلك .. فليتركهم الرسول وافتراءاتهم .. والآية الثالثة معناها أنه كما يوسوس بعض أعداء الرسول لبعض ويوحي بعضهم لبعض الأكاذيب من الكلام غرورا وباطلا، فكذلك يفعلون لتميل إلى أكاذيبهم واختلاقاتهم قلوب الكافرين والمترددين. وليزدادوا رضاء وسرورا بهذه الأكاذيب ، وليختلقوا ما يختلقونه من الأباطيل والأوهام والكلام المموه فى إبطال الرسالة .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة ..

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى » كما اقترحوه « وحشرنا » أى جمعنا « عليهم كل شىء قبلا » قرىء أى بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة، أى فشهدوا بصدقك ، وقرىء بضم القاف والباء جمع قبيل أى فوجا فوجا « ما كانوا ليؤمنوا » لما سبق فى علم الله « إلا أن يشاء الله » أى لكن إن شاء الله إيمانهم فيؤمنون ، لا يؤمنون فى حال من الأحوال إلا فى مشيئة الله تعالى إيمانهم « ولكن أكثرهم يجهلون » أى أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون ، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم لأن بعضهم معاند ، مع أن مطلق الجهل يعمهم فيشمل المعاند ، أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا « وكذلك » أى ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الإنس والجن « جعلنا لكل نبي » أى ممن كان قبلك « عدوا شياطين » أى مردة وهو بدل من عدو « الإنس والجن » وفى هذا دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء بفعل الله تعالى وخلقه « يوحي » أى يوسوس « بعضهم » أى الشياطين من النوعين « إلى بعض زخرف القول »

أى ما رموه من الباطل « غرورا » أى لأجل أن يغروهم بذلك « ولو شاء ربك » إيمانهم « مافعلوه » أى هذا الذى أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها « فذرهم » أى اترك الكفرة على أى حالة اتفقت « وما يفترون» من الكفر وغيره مما زين لهم ؛ وهذا قبل الأمر بالقتال « ولتصغى » عطف على (غرورا) إن جعل علة ، أى ولتميل ميلا قويا « إليه» أى الزخرف الباطل «أفئدة» أى قلوب « الذين لا يؤمنون بالآخرة » أى ليس فى طبعهم الإيمان بها لأنها غيب وهم لبلادتهم واقفون مع وهمهم ، ولذلك استولت عليهم الدنيا التى هى من أصل الغرور ، أو المعنى : وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا «وليرضوه» أى الزخرف الباطل لأنفسهم « وليقترفوا » أى يكتسبوا « ما هم مقترفون » من الآثام فيعاقبوا عليها ، ونزل لما قال مشركو قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود وإن شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا بما فى كتابهم من أمرك .

١١٤ — أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ .

١١٥ — وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

١١٦ — وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

١١٧ — إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

هذه الآيات الأربع إنكار على المشركين ، وإبطال لشركهم ، ورد عليهم ،

ومعنى الآية الأولى : ليتهم جعلوا الله حكما بينك وبينهم ليشهد لك بالرسالة وبالصدق ، ويشهد لهم بالكذب والباطل ، والله عز وجل قد شهد لك فى القرآن ، وأكد رسالتك ، وأبطل كذبهم ، ولماذا هم بعد ذلك شاكون مترددون حائرون ؟ أيبتغون حكما غير الله ، أيريدون شاهدا آخر بعد أن أنزل الله عليك القرآن مفصلا ؟ وهؤلاء هم أهل الكتاب يعلمون أن ما أنزل إليك حق من عند الله ، ويعلمون صدقك وأنك رسول من عند الله ، فلا تبال أيها الرسول بكذب المشركين ولا تتردد وتشك فى موقفك الصادق وموقفهم المخزى المشين .

والآية الثانية تؤكد أن الرسالة ماضية فى طريقها ، وأن كلمات الله ووعده الحق بنصر محمد والمسلمين حق لا ريب ولا تبديل فيه والله يسمع ويعلم .. والآية الثالثة معناها أن أكثر الناس يعادون الرسالة ويضلون عن سبيل الله ، وأنه لا يصح أن يطيعهم الرسول ولا أحد من المسلمين ، لأنهم لا يتبعون إلا الأوهام والأباطيل وهم لا يعلمون شيئاً إلا على الوهم والظن والأباطيل.. والآية الرابعة فيها تسلية للرسول وفيها تفويض الأمر إلى الله ، وأنه هو يعلم الضالين ويعلم المهتدين .. وأن أمر هؤلاء إلى الله ... يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الكريمة : « أفغير الله أبتغى حكما » ، وقد نزلت هذه الآية لما قال مشركو قريش للنبى : اجعل بيننا حكما من أحبار اليهود ومن شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتبهم من أمرك « أفغير الله » أى قل لهم يا محمد أفغير الله « أبتغى » أى أطلب « حكما » أى قاضياً بينى وبينكم « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب » أى القرآن المعجز ، وهو هذا القرآن الذى هو تبيان لكل شىء « مفصلا » أى مبينا فيه الحق من الباطل « والذين آتيناهم الكتاب » أى المعهود إنزاله من التوراة والإنجيل والزبور « يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » أى بالصدق ، وعندهم به من البشائر فى كتبهم ما لا يحصى ، أو المعنى : إنهم يعلمون أن القرآن منزل من الله بالحق لتقرير الأحكام ، وبيان كل شىء ، وتفصيل وجوه التشريعات ، وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم

يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن من معرفة ذلك بأدنى تأمل ، وقيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه « فلا تكونن » يا محمد « من الممترين » أى الشاكين فى أن علماء الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله ، وقيل: فلا تكونن فى شك مما قصصنا فيكون من باب التحريض ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ، وقيل : الخطاب وإن كان فى الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به غيره ، أى فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن فى شك أنه منزل من عند الله لما فيه من الإعجاز الذى لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى « وتمت كلمات ربك » أى بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده « صدقا » فى الأخبار والمواعيد لا يقدر أحد أن يبدى فى شيء منها طعنا « وعدلا » أى فى القضاء والأحكام « لا مبدل لكلماته » بنقض أو خلف ، بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة رضى من رضى وسخط من سخط ؛ وقيل : المراد بالكلمات القرآن لا مبدل له لا يزيد فيه المغيرون ولا ينقصون « وهو السميع » لكل ما يقال « العليم » بكل ما يفعل « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » أى دينه وأكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة ، وقيل : الأرض المراد بها مكة وذلك أن المشركين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة ، قالوا للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فكيف تأكلون ماقتلتم ولاتأكلون ما قتل ربكم فنزلت ، وقيل : لا تطعهم فى اعتقاداتهم الفاسدة فإنك إن تطعهم يضلوك عن سبيل الله أى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ، ثم علل ذلك بقوله « إن » أى لأنهم ما « يتبعون » فى مجادلتهم لك « إلا الظن » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق « وإن » أى ما « هم إلا يخرصون » أى يكذبون على الله عز وجل فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونحو ذلك « إن ربك هو » أى لا غيره « أعلم » أى عالم « من يضل عن سبيله وهو » أى لا غيره « أعلم » أى عالم « بالمهتدين » فيجازى كلامنهم بما يستحقه .

١١٨ — فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ .

١١٩ — وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

١٢٠ — وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ .

١٢١ — وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

هذه الآيات الأربع فيها بيان لما يحل للإنسان أكله من الذبائح ، وهى الذبائح التى ذكر اسم الله عليها عند ذبحها ، وفيها تحريم لأكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، وقد تضمنت تحذيرا شديدا من مخالفة ما أمر الله به ..

والمناسبة بين هذه الآيات وما قبلها أن الآيات السابقة فيها نهى عن اتباع الذين يضلون عن سبيل الله ، فيحرمون الحلال ويحلون الحرام ، وما هنا نهى عن متابعة هؤلاء المضلين فى أمر الذبائح .. وقوله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » ، والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه ولا تأكلوا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه « إن كنتم بآياته مؤمنين » أى إن كنتم محققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه فإن الإيمان يقتضى استباحة ما أحله الله تعالى واجتناب ما حرمه « وما لكم » أى فأى غرض لكم فى « أن

لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، من الذبائح « وقد فصل » أى بين « لكم ماحرم عليكم » مما ذكر فى آية « حرمت عليكم الميتة ... » تفصيلا واضح البيان ظاهر البرهان « إلا ما اضطررتم إليه » أى مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة « وإن كثيرا » من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم « ليضلون بأهوائهم » أى بما تهوى أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ، وقرأ عاصم بضم الياء والباقون بفتحها « بغير علم » يعتمدونه فى ذلك ، وقيل : المراد بذلك عمرو ابن لحى لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » أى الذين تجاوزوا الحق إلى الباطل والحرام إلى الحلال « وذروا » أى اتركوا « ظاهر الإثم وباطنه » أى ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها ، وقيل : المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وبباطنه أفعال القلوب . فيدخل فيه الحسد والكبر والعجب وإرادة الشر للمسلمين ونحو ذلك ، « إن الذين يكسبون الإثم » فى الدنيا بارتكاب المعاصى « سيجزون » فى الآخرة « بما كانوا يقترفون » أى يكسبون . وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب ، ومذهب أهل السنة أنه إذا لم يتب فهو وفق مشيئة الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله ، أما إذا تاب من الذنب توبة صحيحة فلا عقاب عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال ابن عباس : الآية فى تحريم الميتة وما فى معناها من المنخنقة وغيرها ، وقال عطاء : الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام . واختلف العلماء فى ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله تعالى : فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركت التسمية عمدا أم نسيانا ، وهو قول ابن سيرين والشعبى ، واحتجوا بظاهر الآية ؛ وذهب قوم إلى حلها مطلقا ، يروى ذلك عن ابن عباس ، وهو قول الشافعى وأحمد ؛ وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامدا لم تحل أو ناسيا حلت وهو مذهب مالك ، ومن قال بالإباحة مطلقا ، قال : المراد من الآية الميتات وما ذكر عليه غير اسم

الله ، بدليل قوله تعالى « وإنه لفسق » أى ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال تعالى فى آخر السورة « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً » إلى قوله « أو فسقا أهل لغير الله به » ، والضمير فى « إنه » يرجع إلى « ما » ويجوز أن يكون للأكل الذى دل عليه لا تأكلوا ، واحتجوا أيضا فى إباحتها بما روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قالوا يا رسول الله : إن هنا أقواما حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحم فلا ندرى أيذكرون اسم الله عليه أم لا ؟ قال : اذكروا أنتم اسم الله وكلوا ، فلو كانت التسمية شرطا للإباحة لكان الشك فى وجودها مانعا من أكلها كالشك فى أصل الذبح « وإن الشياطين ليوحون » أى يوسوسون « إلى أوليائهم » من الكفار « ليجادلوكم » فى تحليل الميتة بقولهم يأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله ، وهذا يؤيد التأويل بالميتة « وإن أطعتموهم » أى باستحلال ما حرم « إنكم لمشركون » أى مثلهم فى الشرك ، قال الزجاج : فيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك .

١٢٢ — أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٢٣ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

١٢٤ — وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

١٢٥ - فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

١٢٦ - وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

هذه الآيات الخمس فى تمجيد رسالة الإسلام وجلالها وأثرها فى بعث العرب وإنقاذهم وهدايتهم ، وفى التنديد بالمعارضين للإسلام ولمحمد عليه السلام وبالمشركين وبالحاقدين عليه وعلى رسالته ؛ وفيها إنذار لهؤلاء وهؤلاء ممن وقفوا فى سبيل دعوة الإسلام حجر عثرة ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وفيها كذلك بيان لتوفيق الله لمن شرح صدورهم بالإسلام ، وغضبه على من عاندوا محمدا ودعوته. والإسلام صراط مستقيم ، وسبيل واضح لا ضلال فيه ولا حيرة ، وهو دين تقبله العقول ، وتدعو إليه الفطرة الإنسانية ، وهو دين الله القويم ، وصراطه المستقيم ، وكفى به دينا وبالقرآن كتابا منزلا من السماء . . يقول الله تعالى : « أو من كان ميتا » أى بالكفر « فأحييناه » أى بالإيمان ، وإنما جعل الكفر موتا لأنه جعل الإيمان حياة ، لأن الحى صاحب بصر يهتدى به إلى رشده ، ولما كان الإيمان يهدى إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية ، شبهه الله عز وجل بالحياة « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » أى يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان ، وقال قتادة : هو كتاب الله القرآن فهو آيات من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ، وبها ينتهى « كمن مثله » أى كمن هو « فى الظلمات » جمع ظلمة والمراد بها الشدة أو الحيرة أو نفس الظلام « ليس بخارج منها» وهو الكافر ، أى ليس مثله ، وقد نزلت هذه الآية فى حمزة بن عبدالمطلب رضى الله تعالى عنه وأبى جهل بن هشام ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث

فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من صيده وبيده قوس ، وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس ، وهو يقول : ياأبا يعلى أما ترى ماجاء به ؟ سفه عقولنا وسفه آلهتنا وخالف آباءنا ؟ فقال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وقيل : فى عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبى جهل « كذلك » أى كما زين للمؤمنين إيمانهم « زين للكافرين ما كانوا يعملون » أى من الكفر والمعاصى ، قال أهل السنة : المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى « زينا لهم أعمالهم » ، وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان ورد بالآية المذكورة « وكذلك » أى كما جعلنا فساق مكة أكابرها «جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها» أى عظماءها ، وأكابر جمع أكبر جمع كأفضل وأفاضل ؛ وذلك سنة الله تعالى أنه جعل فى كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم كما قال فى قصة نوح « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » ؟ وجعل فساقهم أكابرهم « ليمكروا فيها » بالصد عن الإيمان وذلك أنهم جلسوا على طريق مكة أربع نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقولون لكل من يقدم : إياكم وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب ، فكان هذا مكرهم « وما يمكرون إلا بأنفسهم » لأن وباله يحيق بهم «وما يشعرون» أى وما لهم نوع شعور بذلك «وإذا جاءتهم» أى أهل مكة « آية » على صدق النبى صلى الله عليه وسلم « قالوا لن نؤمن » به « حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله» أى من النبوة ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا ، فنزلت ؛ وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل حين قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه والله لانرضى إلا أن يأتينا بوحى كما يأتيه ، وقوله تعالى «الله أعلم حيث يجعل رسالاته» استئناف للرد عليهم ، بأن النبوة ليست بالنسب والمال ، وإنما هى بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده فيجتبى لرسالاته من علم أنه يصلح ، أى يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه فيضعها ،

وهؤلاء ليسوا أهلها « سيصيب الذين أجرموا » بقولهم ذلك « صغار » أى ذل وهوان « عند الله » يوم القيامة ، وقيل تقديره : من عند الله « وعذاب » أى مع الصغار « شديد » أى فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالنار « بما » أى بسبب ما « كانوا يمكرون » ، من صدهم الناس عن الإيمان وطلبهم مالا يستحقونه « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » بأن يقذف فى قلبه نورا يضيئه ويهديه إلى الحق ويقبله ، ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال : نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له قلبه وينفسح ؛ قيل . فهل لذلك أمارة ؟ قال : نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت «ومن يرد » أى الله «أن يضله يجعل صدره ضيقا» أى عن قبول الإيمان حتى لا يقبله ولا يدخل فيه «حرجا» بكسر الراء أى شديد الضيق وقرىء بالفتح وصفا للصدر ، وفى الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر « كأنما يصعد فى السماء » أى يشق عليه الإيمان كما يشق عليه الصعود إلى السماء ، شبه ضيق صدر الكافرين بالإسلام بمن يزاول مالا يقدر عليه « كذلك » أى مثل ما جعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان « يجعل الله الرجس » أى العذاب والشيطان أى يسلطه « على الذين لا يؤمنون» وقال الزجاج : الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب « وهذا » أى الدين الذى أنت عليه يا محمد «صراط» أى طريق «ربك مستقيما» لا عوج فيه « قد فصلنا » أى بينا « الآيات لقوم يذكرون » أى يتعظون فيعلمون أن القادر على كل شىء هو الله عز وجل وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد ، حكيم عادل فيما يفعل بهم وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون .

وإلى هنا ينتهى الربع الأول من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد احتوى هذا الربع على الأصول الجليلة الآتية :

١ — إن مشركى مكة يقاومون دعوة الإسلام دون سبب معقول إلا استجابة لنداء الشر والعصبية والكبرياء .. ومهما أجيبوا إليه من مطالب واقتراحات فلن يؤمنوا ، ولو نزل عليهم ملك من السماء يحمل فى يده رسالة من الله عز وجل بصحة رسالة محمد عليه السلام وصدقه ؛ وكذلك لو نطقت الموتى ، فحدثتهم بصدق محمد الرسول ، أو اجتمع إليهم من كل شىء جماعات كثيرة تحدثهم بأن الإسلام دين الله الحق ، وأن محمدا خاتم الرسل والنبيين ، وأن القرآن نزل من الله .. إن هؤلاء المشركين هم أعداء الرسالة ، ولكل رسول خصومه من الإنس والجن ، يزين بعضهم لبعض زخرف القول باطلا وكذبا وغرورا وأساطيرا وأوهاما ملفقة ، افتراء على الرسول والرسالة وعلى الله عز وجل ، مما ينفثونه من سمومهم ودعاياتهم الكاذبة ضد الإسلام ومحمد عليه السلام ، ليستميلوا به إليهم قلوب الجماهير وعامة الناس حتى ؛ لا يؤمنوا بدين ، ولا يصدقوا رسولا ؛ ولو كانوا يريدون المخاصمة الشريفة ، ويبتغون حكم الله على صحة رسالة محمد عليه السلام وصدقه لاكتفوا بشهادة الله عز وجل له بالصدق والحق وبأنه منزل من عند الله عز وجل . . وهذا الحكم وتلك الشهادة نطق بهما القرآن الكريم .. كما أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسالة والرسول .

٢ — إن الإسلام مؤيد دائما بنصر الله ، وقد تمت آياته ، وتم وعد الله له بالفوز والنصر دائما أبدا ، ولا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم .. كما انتهى وتم وعد الله لرسوله العظيم بإهلاك هؤلاء المشركين والقضاء عليهم وعلى ما كانوا يعتقدون ..

٣ — الجماهير وعامة الناس وأكثر من فى الأرض دائما تسير وراء الضلال وتؤمن به وتعتقد فيه ، والرسول يجب أن يخالفهم ويقاومهم لأنهم لا يتبعون إلا الظنون والأوهام ، والله عليم بأباطيلهم وأكاذيبهم ، وهو أعلم بالمهتدين .

٤ — الذبائح كل ما ذكر اسم الله عليه منها فهو حلال ، وأكله جائز ، أما مالم يذكر اسم الله عليه فلا يحل أكله ، ولا يجوز تناوله ، مهما قال المشركون والجاهلون .

٥ — لا يستوى من اهتدى بهدى الله ، وآمن بدينه ، واستضاء بنوره ، ومن ظل على الشرك والباطل وقاوم دعوة الإسلام وجحدها ، فهؤلاء المشركون سيظلون فى الظلمات ليسوا بخارجين منها ، وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون .

٦ — وفى كل أمة لا بد من وجود هذه الطبقة المترفة الكبيرة المؤمنة بمبادىء الطغيان والوحشية والنهب وأكل أموال الناس بالباطل ، وهذه الطبقة فى كل أمة هى التى تقاوم دائما دعوات الحق ، وتصد عن سبيل الله ودينه ، وتدعو إلى الكفر والشرك والإثم ؛ وهؤلاء مهما فعلوا ومكروا ، فإنما يمكرون على أنفسهم وما يشعرون .. بل إن هؤلاء قد ملأ الحقد قلوبهم ، حتى زعم بعضهم أنه كان أولى من الرسول والرسالة ، وأنه لا يؤمن بشىء حتى يوحى إليه مثل ما أوحى للرسول ، ونسى أن الله عز وجل يعلم أين يضع رسالته ، وسيصيبهم صغار من عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون .. وإن الذين وفقهم الله وشرح صدرهم للإسلام هم الذين يؤمنون ، أما هؤلاء المشركون فصدورهم ضيقة حرجة ، بما ملأهم من الغرور والكبرياء ، حتى كأنهم يطلبون الصعود فى السماء ، ومثل هؤلاء لا يؤمنون بدين ، ولا يتبعون رسولا ..

٧ — الإسلام هو صراط الله المستقيم ، وهو دينه القويم ، والقرآن الكريم قد فصل الله عز وجل فيه الآيات لمن يريد أن يتذكر وأن يتعظ وأن يؤمن بالحق ويدعو إليه ، والله على كل شىء حسيب .

الربع الثانى

١٢٧ — لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

١٢٨ — وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

١٢٩ — وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

١٣٠ — يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ .

١٣١ — ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ .

١٣٢ — وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

١٣٣ — وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ .

١٣٤ — إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

١٣٥ — قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

هذه الآيات التسع الكريمة يبتدىء بها الربع الثانى من هذا الجزء من القرآن الكريم . . وفيها يذكر الله عز وجل فى الآية الأولى أن المؤمنين والذين يتذكرون ويتعظون بآيات الله لهم دار السلام عند الله ، والله عز وجل وليهم فى الدنيا والآخرة بسبب أعمالهم الصالحة ، وعقيدتهم الطيبة ، أما الآية الثانية فتمثل حوار الناس والشياطين فى الآخرة أمام الله عز وجل عند الحساب ، يقول الله عز وجل لهؤلاء الشياطين : قد استكثرتم من الإنس وأضللتموهم حتى ضلوا عن سواء السبيل ، ويقول أتباعهم من البشر ندما : قد انتهى الأمر وجاء المصير وحل العذاب ، ويقول لهم الله عز وجل : النار مثواكم جميعاً خالدين فيها إلا ما شاء الله .. وفى الآية الثالثة يقرر الله عز وجل أن هؤلاء الضالين والمضلين كان بعضهم أولياء بعض فى الضلال والبهتان والشرك العظيم . وفى الآية الرابعة يوبخ الله عز وجل هؤلاء وهؤلاء جميعا من الإنس والجن لعدم إيمانهم برسالات السماء ، وشهدوا على أنفسهم أمام الله بالكفر والشرك والإثم العظيم . وفى الآية الخامسة يقرر الله عز وجل أنه لا يهلك أمة ولا أحدا بظلم ، ولا يمس شعبا من الشعوب بالعذاب إلا بعد أن يبعث إليه رسولا . وفى الآية السادسة يذكر الله عز وجل أن هؤلاء المشركين لكل منهم منزلته فى الكفر ودرجته فى الشرك ، ولهم بسبب ذلك منزلتهم من عذاب الله فى الآخرة .. وفى الآية السابعة تهديد من الله عز وجل لمشركى مكة بأنه قادر على أن يذهبهم ويهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء . وفى الآية الثامنة يقرر الله عز وجل أن وعيد الله ووعده حق وصدق ، وأن الله لا يعجزه أحد فى الارض ولا فى السماء . وفى الآية التاسعة يذكر الله عز وجل أنه سيترك كل

إنسان يعمل ما يشاء وكما يريد ، فأمام كل أحد عذاب الله وأمامه انتقامه الشديد . .

قوله تعالى « لهم » أى للمتذكرين « دار السلام » هى الجنة وأضافها لنفسه فى قول جميع المفسرين ، ـ فإن السلام كما قال الحسن هو الله تعالى ـ تشريفا لها ، أو أن المعنى : تحيتهم فيها سلام ، أو أراد بها دار السلامة « عند ربهم » أى ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره «وهو وليهم» أى المتكفل بتولى أمورهم ولا يكلهم إلى أحد سواه « بما » أى بسبب ما « كانوا يعملون » من الأعمال الصالحة التى كانوا يتقربون بها إليه فى الدنيا . . « ويوم » أى اذكر يا محمد يوم « نحشرهم » أى الخلق « جميعا » أى لا نترك منهم أحدا « يا معشر الجن » فيه حذف تقديره : ويقال لهم يا معشر الجن ، والمعشر الجماعة ؛ والمراد من الجن الشياطين « قد استكثرتم من الإنس » أى من إضلالهم وإغوائهم حتى صار أكثرهم أتباعكم «وقال أولياؤهم» أى الذين أطاعوهم « من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » أى انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، كما انتفع الجن بطاعة الإنس لهم « وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » أى إن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة ، قال الحسن : الأجل الموت ، وقيل : هو وقت البعث للحساب فى القيامة « قال » الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس : « النار مثواكم » أى مأواكم « خالدين فيها » أى إلى مالا آخر له من الزمن ، فالجزاء من جنس العمل « إلا ما شاء الله » أى من الأوقات التى يخفف فيها العذاب عنهم ، وقيل : إلا ما شاء الله قبل الدخول ، قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب . وقال ابن عباس : الاستثناء يرجع إلى قوم سبق علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار ، قال البغوى : (ما) بمعنى (من) على هذا التأويل « إن ربك حكيم » فى صنعه « عليم » بعواقب أمور خلقه وما هم صائرون إليه « وكذلك » أى كما متعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض « نولى » من الولاية « بعض الظالمين بعضا » أى على بعض ، روى عن ابن عباس فى تفسيرها هو أن الله

تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم « بما » أى بسبب ما « كانوا يكسبون » من الكفر والمعاصى « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » أى من مجموعكم وهم الإنس ، إذ الرسل منهم خاصة ، ولكن لما جمع الجن والإنس فى الخطاب صح ذلك ؛ ونظيره قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » ، فإن ذلك يخرج من الملح دون العذب أو أن رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسول فيبلغون قومهم كما قال تعالى: « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن » الآية، وتعلق بظاهر الآية قوم فقالوا: بعث إلى كل من الثقلين رسل من جنسهم وهو الصحيح فى رأيى « يقصون عليكم آياتى » أى يخبرون بما أوحى إليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى « وينذرونكم لقاء يومكم هذا » أى ويحذرونكم لقاء عذاب الله فى يومكم هذا يوم القيامة « قالوا شهدنا على أنفسنا » أى اعترفنا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ، وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر، قال الله تعالى « وغرتهم الحياة الدنيا » أى إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » أى فى الدنيا وقد أقروا على أنفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا فى آية أخرى وهى قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين » لتفاوت الأحوال والمواطن فى ذلك اليوم المتطاول، فيقرون فى بعضها ويجحدون فى بعض آخر ، وكرر شهادتهم على أنفسهم لأن الأولى حكاية لقولهم: كيف يقولون وكيف يعترفون والثانية ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم أقبلوا على الدنيا ولذاتها وأعرضوا عن الآخرة حتى كان عاقبة أمرهم أن أقروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام تحذيرا للسامعين عن مثل أحوالهم « ذلك » أى إرسال الرسل « أن » لأجل أن « لم يكن ربك مهلك القرى بظلم » أى بسبب ظلم ارتكبوه « وأهلها غافلون » أى لم تصلهم رسالة رسول يبين لهم « ولكل » أى من العاملين بطاعة أو معصية الله « درجات » أى جزاء « مما عملوا » أى من خير وشر ، إن كان خيرا

فخير وإن كان شرا فشر ، وإنما سميت درجات لتفاضلها فى الانخفاض كتفاضل الدرج « وما ربك بغافل عما تعملون » أى عن شىء يعمله أحد من الفريقين بل هو عالم بكل شىء من ذلك وبما يستحقه العامل من ثواب أو عقاب « وربك الغنى » أى الغنى المطلق ، الغنى عن كل عابد وعبادته فليعمل العاملون فكل عامل إنما يعمل لنفع نفسه أو ضرها « ذو الرحمة » أى المتجاوز عن خلقه ، فمن رحمته إرسال الرسل وتأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون « إن يشأ يذهبكم » يا أهل مكة بالإهلاك، ففيه وعيد وتهديد لهم « ويستخلف من بعدكم » أى بعد إهلاككم « مايشاء » أى خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم « كما أنشأكم من ذرية » أى نسل « قوم آخرين » أذهبهم لم يكونوا على مثل صفتكم من الشرك والضلال . ولكنه أبقاكم رحمة لكم « إنما توعدون » من مجىء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة « لآت » لا محالة « وما أنتم بمعجزين » أى فائتين عذابنا « قل » يا محمد لقومك من كفار قريش « يا قوم اعملوا على مكانتكم » أى حالتكم التى أنتم عليها « إنى عامل » على حالتى التى أنا عليها ، والمعنى : اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد « فسوف تعلمون » غدا فى القيامة « من تكون له عاقبة الدار » أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة أنحن أم أنتم « إنه لا يفلح » أى يسعد « الظالمون » الكافرون .

١٣٦ — وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

١٣٧ — وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

١٣٨ — وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

١٣٩ — وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

١٤٠ — قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

خمس آيات كريمة أخرى فى الرد على المشركين ، وإبطال عقائدهم وعاداتهم وشرائعهم . . ففى الآية الأولى تنديد بما صنعوه من جعلهم لآلهتهم نصيبا مما خلق الله من الحرث والأنعام ، ويتهكم الله عز وجل بهم بعد ذلك فى جورهم فى حكومتهم وفى قسمتهم . . وفى الآية الثانية يندد الله عز وجل بالمشركين كذلك فيما كانوا يصنعون من قتل أولادهم ، ووأد بناتهم ، مخافة الفقر والإملاق ، وفى الآية الثالثة والرابعة كذلك تنديد بما صنعوه فى الحرث والأنعام افتراء على الله وشركا به . وفى الآية الخامسة بيان لخسرانهم وضلالهم البعيد فى قتل أولادهم ، وفى بعض أحوالهم الأخرى . . فالآيات الخمس كلها هى فى السخرية بالمشركين ، والتنديد بصنيعهم وإبطال كثير من عاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم الكاذبة المختلقة ، التى ضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الخمس الكريمة . . « وجعلوا » أى كفار

مكة « لله مما ذرأ » أى خلق « من الحرث » أى الزرع « والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهـذا لشركائنا » وذلك أن المشركين كانوا يجعلون لله من حرثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللأوثان نصيبا ، فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها ، فإن سقط شىء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان، وقالوا : إنها محتاجة ؛ وكان إذا هلك أو انتقص شىء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا هلك شىء مما جعلوه للأصنام وضعوا بدله مما جعلوه لله ، فذلك هو معنى قوله تعالى « فما كان لشركائهم » أى ما جعلوه لها من الحرث والأنعام « فلا يصل إلى الله » أى إلى جهته فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان « وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » وفى قوله تعالى : « مما ذرأ » تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق فى خلقه جماداً لا يقدر على شىء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى له ؛ وفى قوله تعالى « بزعمهم » تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ولم يأمرهم الله تعالى به « ساء » أى بئس « ما يحكمون » أى حكمهم هـذا « وكذلك » أى ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم والكفر بربهم شركاؤهم « زين لكثير من المشركين قتل أولادهم » خشية الإملاق « شركاؤهم » من الجن أو من السدنة أى الخدمة « ليردوهم » أى ليهلكوهم بذلك القتل الذى أمروهم به والإرداء فى اللغة الإهلاك ، وقال ابن عباس : ليردوهم فى النار « وليلبسوا » أى وليخلطوا « عليهم دينهم » قال ابن عباس : ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فوضعوا لهم هذه الأصنام وزينوها لهم « ولو شاء الله » عصمة هؤلاء من ذلك القبيح الذى زين لهم «ما فعلوه» لجميع الأشياء بمشيئته وإرادته « فذرهم » أى اتركهم يا محمد « وما يفترون » أى وما يختلقون من الكذب على الله فإن الله لهم بالمرصاد ، وفى ذلك تهديد لهم « وقالوا » أى المشركون سفها وجهلا « هـذه » إشارة إلى جزء من أموالهم عينوها لآلهتهم « أنعام وحرث حجر » أى حرام محجور عليها لا يصل أحد إليها « لا يطعمها » أى لا يأكل

منها « إلا من نشاء » أي من خدمة الأوثان والرجال دون النساء « بزعمهم » أي لا حجة لهم فيه « وأنعام حرمت ظهورها » فلا يركبونها كالبحائر والسوائب والحوامي « وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها » أي عند ذبحها ، وإنما كانوا يذكرون عليها اسم الأصنام ، وقيل : لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل خير ، لأن العادة لما جرت بذكر الله على الخير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ونسبوا ما فعلوه إلى الله تعالى « افتراء عليه » أي اختلاقا وكذبا أنه أمرهم بها « سيجزيهم » أي بوعد صادق لا خلف فيه « بما » أي بسبب ما « كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الأنعام » وهي البحائر والسوائب « خالصة لذكورنا » أي خاصة بهم دون الإناث كما قال تعالى « ومحرم على أزواجنا » أي النساء ، وحذف الهاء من (محرم) إما حملا على اللفظ أو تخفيفا ، لأن المراد بخالصة المبالغة « وإن يكن » أي ما في بطونها « ميتة فهم فيه شركاء » أي الذكور والإناث فيه سواء ، أي إن ما ولد منها حيا فهو للذكور دون الإناث وما ولد منها ميتاً أكله الذكور والإناث جميعا « سيجزيهم » الله « وصفهم » أي سيكافئهم على وصفهم بالكذب على الله بالتحليل والتحريم « إنه » أي الله « حكيم » في صنعه « عليم » بخلقه « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها » أي جهلا « بغير علم » نزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر ، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك ، وكان هؤلاء الوائدين قد نسوا أن الله هو رازق أولادهم لا هم ، لأن الجهل كان غالبا عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا سموا جاهليين ، وسبب هذا الخسران أن الولد نعمة عظيمة ، أنعم الله تعالى بها على الوالد ، فاذا تسبب في ضياع هذه النعمة وإبطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة : أما خسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وإزالة ما أنعم الله تعالى به عليه ، وأما خسارته في الآخرة فقد استوجب بذلك العذاب العظيم « وحرموا ما رزقهم الله » وتفضل به عليهم رحمة لهم من تلك الأنعام والغلات بغير شرع ولا تقع بوجه من الوجوه في موضعها « افتراء » أي كذبا

وتعمدا الكذب والبهتان «على الله» والجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب والكبائر، ولهذا قال تعالى «قد ضلوا» أى فى فعلهم، وبعدوا عن الحق والرشاد «وما كانوا مهتدين» إلى طريق الحق والصواب فى فعلهم، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها» إلى قوله «وما كانوا مهتدين»، وروى عن مهدى بن ميمون أنه قال: سمعت رجلا من الجاهلية يقول: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر، وإذا لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به فإذا جاء شهر رجب فكلنا متصل الأسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناه فألقيناه فى شهر رجب.

* * *

وهذه هى نهاية الربع الثانى من هذا الجزء الكريم.. وقد تضمن هذا الربع أصولا جليلة نلخصها فيما يلى:

١ — للمؤمنين والذين يتذكرون الله وشريعته دار السلام عند الله فى الآخرة، وهو وليهم وناصرهم، وهم المشمولون برعايته دائما بسبب ما عملوا من خير، وما قدموا من صالحات.

٢ — إن جميع البشر الضالين منهم وغير الضالين سيقفون أمام الله للحساب، فللمهتدين الخير والثواب كما سبق، وللضالين العذاب والعقاب وسوء المصير، سواء منهم شياطين الإنس الذين ضلوا عن سواء السبيل أم شياطين الجن الذين أضلوا، واستكثروا من الأتباع، ووسوسوا للغاوين فازدادوا غيا، وللحائرين فوقعوا فى الضلال.. والله عز وجل قد قدم لهم سبب الهداية فكان بانصرافهم عنه سبب عذاب، بعث لهم الرسل، وأنزل عليهم الآيات، وأنذرهم لقاء يوم الآخرة.. ومع ذلك فقد غرتهم الحياة الدنيا، واستهوتهم الشياطين، وضلوا عن السبيل المستقيم، فهلكوا وباءوا بالإثم والذنب

والبهتان العظيم ؛ والله عز وجل لا يعاقب الأمم والشعوب إلا وهى تستحق هذا العقاب ، ولا يرميها بالمحن والأحداث وسوء المنقلب إلا وقد بدلت من آيات الله ، وانصرفت عن تعاليم السماء ، وغوت وباءت بسوء المنقلب ، إنه لا يعاقبها ظالما لها ، ولا فى غفلة من أهلها ، ولكن يعاقبها حين تقع فى الذنوب ، وتصر على الأخطاء ، وكذلك هو لا يرفع الأمم ويعزها إلا حين تتوب إلى الله ، وتفهم الحياة فهما صحيحا « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

٣ — تهديد للمشركين من أهل مكة خاصة ومن العرب وغيرهم عامة ؛ تهديدهم بما وقفوا فى سبيل دعوة الإسلام ، وبما أسرفوا على أنفسهم ، وبما قاوموا من تعاليم السماء ، فلو شاء الله لأذهب هؤلاء المشركين واستخلف غيرهم قوما آخرين صالحين ، فقدرته التى أوجدت هؤلاء المشركين ومكنت لهم ، وجعلتهم أمة جاءت بعد أمم كثيرة ؛ هى التى تقدر على إهلاكهم ، وعلى أن يجىء بعدهم غيرهم ممن يصلحون للاستخلاف فى الأرض .. وتهديد لهم بأنهم لابد أن ينالهم وعد الله ووعيده ، لأنهم لا يعجزون الله فى الأرض ولا فى السماء ، والذين سوف تكون لهم عاقبة الدار هم الصالحون الأخيار ، وان يفلح الظالمون أبداً .

٤ — التنديد بالمشركين فيما افتروه على الله وفيما زعموه من أوهام وأكاذيب ، وفيما اتخذوه من نسك ومشاعر وعادات ، وجعلهم لشركائهم نصيبا مما خلق الله ، ووأدهم أولادهم وبناتهم مخافة الفقر والعار ، وهذا هو الضلال العظيم ، والبهتان الكبير .. إن هذا الربع والربع الذى سبق مثل من أمثلة دفاع القرآن الكريم فى هذه السورة عن عقيدة التوحيد ، ومن أمثلة نقض القرآن لعقيدة الشرك ، وإبطال مزاعم المشركين وترهاتهم وأوهامهم وأباطيلهم . لإثبات أن الإسلام دين الحق والخير وشريعة السماء المنزلة على

محمد صلى الله عليه وسلم ، والإسلام هو دين الإنسانية ، وشريعة الإخاء والتوحيد والعدل والحرية ، وهو النور الوهاج الذى لا تقاومه ظلمات الشرك ، والمنارة الشماء التى لا يصل إليها باطل المشركين ، وهو الدين الذى شهد له الله والملائكة فى السماء ، وشهد له المنصفون والعقلاء من الناس فى الأرض ؛ وهو الدين الذى تتلاشى أمامه أكاذيب الأديان الأخرى وأوهامها وترهاتها وخرافاتها وبدعها ، وقد وقف علماء أوربا وفلاسفتها ومفكروها أمام الإسلام وعظمة القرآن صاغرين أذلاء . كما وقف أمامهما مفكرو الشرق من غير المسلمين معجبين مشدوهين كذلك ؛ يقول كاين بيلر فى خطاب جامع ألقاه بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٨٧ ما نصه : « إن الإسلام قد سبق النصرانية بمراحل شاسعة ، فإن النصرانية فى بعض الجهات أخذت فى التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامى ، فى حين أن الوسائل التى تستعملها لتنصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشباك التى تنصبها لهم تنقطع حبالها . والدين الإسلامى يمتد الآن من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت قدمه فى إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة » . وقال اللورد ستانلى وقد سئل : لم أسلمت وقد كنت مغرقا فى نصرانيتك ؟ : « أو أغمط الفضل أهله ، أو أجحد الله وعلمه . أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره . وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث وإجهاد ، فلا أقبل به بديلا . أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » . . وقال توماس كارليل : « ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل مالم يكن بحق ، كأنه حطب جاف أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب . . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس

فيها حركة ، منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا.. وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، واشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس والنجدة ، وورونق الحق والهدى على نصف المعمورة » .

وقال اللورد هدلى : « إن فى انجلترا ألوفا من الأفراد المثقفين ، وهم مسلمون فى قلوبهم ، وإن لم يعلنوا ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام فكانوا يجيبوننى : إذا كان هذا هو دينك فإنا إذن مسلمون لأن هذا ما نعتقده وما نفكر فيه » ويقول فارس الخورى : « إن محمدا أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الرسالة والشريعة التى دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . إن محمداً عليه الصلاة والسلام ، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها » . . إلى غير ذلك ، من آراء المفكرين ، فى الغرب والشرق ، مما تركنا الإشارة إليه ومما سيجىء بعضه ، وهى كلها شهادات ناطقة ، بجلال الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، واعترافه بحقوق الإنسان ، وبحرمات الشعوب ، وإنقاذه للإنسانية من براثن الجهل والخوف والاضطراب والظلام .. وقد حلل جول لا بوم حالة العالم قبل ظهور الإسلام ، فى القرن السادس ، ووصف النور الذى انبعث من الصحراء فقال : كان جو العالم الأرضى متلبداً بسبب الاضطرابات

الوحشية فى كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . » وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يدفع الناس شىء إلا الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحرب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين. ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجرائيم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الترقى فى المستقبل ، لكانت البربرية أسرعت فى خطرها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، واستحالت إلى وحشية محضة ، . مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى كان يقال إنها متمدينة : ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوربا إلا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط إلا فى غاية الضعف والضؤولة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فإن علاقاتها مع آسيا لم تكن تتعدى حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من الفرس إلى تبعية امبراطور القسطنطينية تبعية إسمية ؛ أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها . على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات ، وصعدوا رويداً رويدا إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصرى ، الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ، ولم ينجلوا عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانه المتأخرين ، وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى عليه السلام ، حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم . أما المملكة الوحيدة التى كان بينها

وبين العرب صلة أو علاقة ، فهى بلاد الحبشة ، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين ، والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين ، فكانوا لا يحلمون بوجودها — ويقول كوسان دوبر سوفال فى كتاب تاريخ العرب : « إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحرارا لا سلطة عليهم ، وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه » . ثم قال لابوم : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان » . يقول دوزى فى مؤلفه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية . والعيسوية . والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم ، نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد فمنسوب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانات تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار ، حيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء » .

« أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم ، وكانت طبائع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضاً تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم يكن — وهو أمر أغرب من سابقه — إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعياً إلى

الالتفات بنوع أخص » . وشتان بين هذا وبين ما بلغوه من حضارة وشأو في الإسلام وبعد ظهور الإسلام .

الربع الثالث

١٤١ — وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ .

١٤٢ — وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

١٤٣ — ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

١٤٤ — وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٤٥ — قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ

رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٤٦ — وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

١٤٧ — فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ .

هذه الآيات السبع هى مفتتح الربع الثالث من هذا الجزء الكريم ، وهى فى التدليل على وجود الله بذكر مظاهر قدرته فى الأرض ، ونعمته على الناس، وفى تسفيه عقول المشركين ، وتكذيبهم فى افتراءاتهم على الله ، وفى نفى ما زعموه من تحليل وتحريم مما نسبوه إلى الله عز وجل ، والله عز وجل منه برىء ، ومنهم براء ، وفى تهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الشديد والبأس الأليم .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات السبع الكريمة . . . « وهو الذى أنشأ » أى خلق « جنات » أى بساتين « معروشات » أى مبسوطات على الأرض كالبطيخ والخيار والطماطم وغيره « وغير معروشات » بأن ارتفعت على ساق كالنخل وشجر الرمان ؛ وقال الضحاك : كلاهما فى شجر الكرم خاصة ، لأن منه ما يعرش بأن يبق على وجه الأرض منبسطا ، ومنه ما لم يعرش بأن يرتفع على ساق ، وقيل : المعروشات ما عرشه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير المعروشات هو ما أنبته الله تعالى فى البرارى والجبال من كرم أو شجر « و » أنشأ « النخل والزرع مختلفا أكله » أى ثمره وحبه فى الهيئة والطعم ، فمنها الحلو والحامض والجيد والردىء ،

والضمير فى (أكله) للزرع ، والباقى محمول بالقياس عليه ، أو للنخل والزرع داخل فى حكمه لكونه معطوفا عليه ، أو للجميع على تقدير كل ذلك أو كل واحد منها « والزيتون والرمان متشابها » أى فى المذاق « وغير متشابه » أى فى الطعم وقيل : متشابهين فى المنظر مختلفين فى الطعم ، ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلى وهو الانتفاع بها ، فقال تعالى : «كلوا من ثمره » أى ثمر كل واحد من ذلك « إذا أثمر » أى حين استوائه ونضجه وظهور خصائص طعمه ، وهذا أمر إباحة «وآتوا حقه يوم حصاده» الأمر هنا للوجوب ؛ والآية مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة والأمر بإتيانها يوم الحصاد لبعث اهتمام المسلم بأداء هذا الحق حتى لا يؤخره عن أول وقت يمكن فيه أن يؤدى هذا الحق ؛ وقيل: الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فالحق هو ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجبا حتى نسخه تشريع الزكاة ، « ولا تسرفوا » أى بإعطائه كله فلا يبقى لعيالكم شيء ، روى أن ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة وقسم تمرها كله فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً فنزلت « إنه لا يحب المسرفين » أى المتجاوزين ما حد لهم ، وفى ذلك وعيد وزجر عن الإسراف فى كل شيء ، قال مجاهد : الإسراف ما قصرت به عن حق الله تعالى ، وقال : لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل أنفقه فى طاعته لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما أو مدا فى معصيته كان مسرفا . « ومن الأنعام » عطف على جنات أى وأنشأ من الأنعام « حمولة » أى صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار والبغال « وفرشا » أى لا تصلح للحمل كالإبل الصغار والغنم ، سميت فرشا لأنها كالفرش للأرض لدنوها منها ، وقيل : الفرش ما ينسج من وبرها وصوفها وشعرها «كلوا مما رزقكم الله » أى مما أحله لكم من هذه الأنعام والحرث « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أى طرقه فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية « إنه » أى الشيطان « لكم عدو مبين » أى بين العداوة « ثمانية أزواج » أى أصناف بدل من حمولة وفرشا ، والزوج

لغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الإثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج «من الضأن» زوجين اثنين أى ذكر وأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم «ومن المعز» زوجين «اثنين» أى ذكر وأنثى، والمعز هى ذوات الشعر من الغنم «قل» يامحمد لمن حرم ذكور الأنعام مرة وإناثها أخرى وأولادها كيف ماكانت ذكورا وإناثا أو مختلطة تارة ونسبوا ذلك لله «آلذكرين» من الضأن والمعز «حرم» الله عليكم «أم الأنثيين» منهما «أما» أى أم حرم ما «اشتملت» أى انضمت «عليه أرحام الأنثيين» ذكرا كان أو أنثى «نبئونى» أى أخبرونى «بعلم» عن كيفية ذلك بأمر معلوم من جهة الله تعالى على تحريم ماحرمتم «إن كنتم صادقين» فى دعواكم، والاستفهام للإنكار، والمعنى: من أين جاء التحريم فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام، وإن كان من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام، أو من قبل اشتمال الرحم فالزوجان حرام، فمن أين جاء لكم هذا التخصيص «ومن الإبل اثنين» ذكراً وأنثى «ومن البقر اثنين» كذلك «قل» يامحمد لهؤلاء الذين اختلقوا جهلا وسفها «آلذكرين حرم» الله عليكما «أم الإثنين» منهما «أما» أى أم حرام ما «اشتملت» أى انضمت «عليه أرحام الأنثيين» ذكرا كان أو أنثى «أم كنتم» أى بل أكنتم «شهداء» أى حاضرين «إذ وصاكم الله بهذا» أى حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا بالمشاهدة والسماع، فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله تعالى، ولما احتج عليهم بهذه الحجة وبين أنه لاسند لهم فى ذلك قال تعالى «فمن» أى لاأحد «أظلم ممن افترى» أى تعمد «على الله كذبا» كعمرو بن لحى فإنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام؛ ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدأ شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله، ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص، فكل من أدخل فى دين الله ماليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد «ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم

الظالمين، أى لايرشد ولايوفق من كذب عليه وأضاف إليه مالم يشرع لعباده ..
ولما بين سبحانه وتعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحريم والتحليل من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات، أتبعه بالبيان الصحيح فى ذلك ، وبين أن التحريم والتحليل لايكون إلا بوحى سماوى ورسالة نبوية فقال تعالى « قل ، يا محمد ، لاأجد فيما أوحى إلى محرما ، أى طعاما محرما مما حرمتموه « على طاعم ، أى طاعم كان من ذكر أو أنثى « يطعمه ، أى يتناوله أكلا أو شربا أو دواء أو غير ذلك « إلاأن يكون » أى ذلك الطعام «ميتة» وهى كل مازالت حياته بغير ذكاة شرعية « أو دما مسفوحا» أى مصبوبا كالدم فى العرق لا كالكبد والطحال « أو لحم خنزير فإنه ، أى الخنزير «رجس» أى نجس والضمير فى (فإنه) يعود على المضاف إليه . وفى الآية دلالة على نجاسة الخنزير وهو حى ، فلحمه وكذا سائر أجزائه بطريق الأولى «أو فسقا أهل لغير الله به » أى ذبح على اسم غيره ، وظاهر الآية أن المحرمات محصورة فى هذه الأربعة وأنه لايحرم شىء من سائر المطعومات والحيوانات غيرها ، وهى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وماذبح على غير اسم الله تعالى ؛ ويروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم لأنه ثبت أنه لاطريق إلى معرفة المحرمات إلا بوحى ، وثبت أن الله تعالى نص فى هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ، وقال تعالى فى سورة البقرة «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » وإنما تفيد القصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية فى الحكم .. ولكن الذى ذهب إليه جمهور العلماء أن التحريم لايختص بهذه فقط بل المحرم ما كان بنص كتاب أو سنة ، وقد وردت السنة بتحريم أشياء غير ذلك منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع أو مخلب من الطيور ، وورد النهى عن أكل الهر ..
ولما حرم الله تعالى هذه الأشياء أباح أكلها عند الاضطرار بقوله تعالى « فمن اضطر ، أى حصل له جوع خشى منه التلف « غير باغ ، أى غير مضطر « ولا عاد ، أى ولا متجاوز قدر الضرورة « فإن ربك غفور ، لا يؤاخذه

بالأكل « رحيم » به حيث أباح له ذلك « وعلى الذين هادوا » أي اليهود علم على قوم موسى عليه السلام ، وسموا به اشتقاقا من هادوا أي مالوا إما عن عبادة العجل وإما عن دين موسى عليه السلام ، أو من هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير لكثرة انتقالهم من مذاهبهم ، وقيل: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة « وقيل معرب من يهوذا بن يعقوب ثم نسب إليه فقيل يهوذى ثم حذفت الياء في الجمع فقيل يهود « حرمنا » أي بسبب ظلمهم حرمنا عليهم « كل ذى ظفر » أي ماهو كالأصبع للدابة والطير ، وكان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا حرم عليهم ، فعم التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» « ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما » المراد شحم الجوف « إلا ماحملت ظهورهما » أي إلا ماعلق بالظهر والجنب من داخل بطونهما «أو الحوايا» أي ما حملته الحوايا وهي الأمعاء التي هي متعاطفة ملوية جمع حوية «وما اختلط» أي من الشحوم « بعظم » مثل شحم العجز فإن ذلك لا يحرم عليهم ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح وهو بمكة : إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل : يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لاهو حرام أي بيعها ، قال صلى الله عليه وسلم عند ذلك : قاتل الله اليهود ، إن الله تعالى لما حرم عليهم شحومها أجملوه أي أذابوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه « ذلك » أي التحريم العظيم وهو تحريم الطيبات « جزيناهم ببغيهم » أي بسبب مجاوزتهم الحدود «وإنا لصادقون» أي في الإخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم « فإن كذبوك » أي اليهود يا محمد فيما أخبرناك به عنهم فقل لهم « ربكم ذو رحمة واسعة » أي بتأخير العذاب عنكم فلم يعاجلكم العقوبة في ذلك تلطفاً بدعائهم إلى الإيمان « ولا يرد بأسه » أي عقابه « عن القوم المجرمين » إذا جاء وقته ، وقيل: ذو رحمة واسعة للمطيعين وذو بأس شديد للمجرمين .

١٤٨ — سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

١٤٩ — قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ .

١٥٠ — قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث تهكم بالمشركين ورد عليهم ، وتسجيل لافترائهم ، ونقض لما زعموه من التحليل والتحريم افتراء على الله . وفيها من الحجة البالغة ، والإقناع المصيب ، والمنطق الصائب ، ما فيها ، ولله الحجة البالغة . .

يقول الله تعالى فى هـذه الآيات الثلاث الكريمة التى هى ختام الربع الثالث من هذا الجزء الكريم «سيقول الذين أشركوا» إخبار عن مستقبل ، ووقوع هـذا الخبر يدل على إعجاز القرآن وصدقه ، ولما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء» أرادوا أن يجعلوا قولهم «لو شاء الله ما أشركنا» حجة لهم على إقامتهم على الشرك ، وقالوا : إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن فيه حتى لا نفعله فلولا أنه رضى ما نحن فيه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك ، فقال الله تعالى : تكذيبا لهم «كذلك كذب الذين من قبلهم» من كفار الأمم الخالية ومشركيها «حتى ذاقوا بأسنا» أى عذابنا ، ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون إنهم لما قالوا «لو شاء

الله ما أشركنا ، كذبهم الله ورد عليهم فقال : «كذلك كذب الذين من قبلهم»
وأجاب أهل السنة بأن التكذيب ليس فى قوله « لو شاء الله ما أشركنا » بل
ذلك القول صدق ولكن فى قولهم: إن الله أمرنا بها ورضى ما نحن عليه كما
أخبر تعالى عنهم فى سورة الأعراف « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أمرنا بها » فالرد عليهم فى هذا كما قال تعالى : « قل إن الله لا يأمر
بالفحشاء » والدليل على أن التكذيب ورد فى قولهم « والله أمرنا بها »
لا فى قولهم « لو شاء الله ما أشركنا » هو قوله تعالى : « كذب الذين من قبلهم »
بالتشديد ، ولو كان « كذلك » خبرا من الله عن كذبهم فى قوله « لو شاء الله
ما أشركنا » لقال « كذب الذين من قبلهم» بالتخفيف ، وكان قد نسبهم إلى الكذب
لا إلى التكذيب ، وقال الحسين بن الفضل : لو ذكروا هذه المقالة تعظيما وإجلالا
لله تعالى ومعرفة منهم لما عابهم بذلك ، لأن الله تعالى قال: «ولو شاء الله ما أشركوا»،
وقال تعالى: « وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » ، والمؤمنون يقولون ذلك ،
ولكن المشركين قالوا ذلك تكذيبا وتحريضا وجدلا من غير معرفة بالله
وبما يقولون ، ونظيره قوله تعالى : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ، قال
الله تعالى : « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » ، وقد علم من ذلك أن
أمر الله تعالى هو غير مشيئته وإرادته ، فالله تعالى مريد لجميع الكائنات غير
آمر بجميع ما يريد ، وعلى العبد أن يتبع أمره ، وليس له أن يتعلق بمشيئته ،
فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين ما ذكر
« هل عندكم » أى أيها الجهلة « من علم » أى من أمر معلوم يصح الاحتجاج
به على ما زعمتم من تحريم ما حرمتم وأن الله راض بشرككم « فتخرجوه لنا »
أى فتظهروه لنا وتبينوه لنا كما بينا لكم خطأكم « إن » أى ما « تتبعون »
فى ذلك « إلا الظن » أى فيما أنتم عليه ولا علم عندكم « وإن أنتم إلا تخرصون»
أى وما أنتم فى ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل « قل » لهم
حين عجزوا عن إظهار الحجة « فلله الحجة البالغة » أى التامة على خلقه بإنزال
الكتب وإرسال الرسل ، قال الربيع بن أنس : لا حجة لأحد عصى الله

وأشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده « فلو شاء » الله هدايتكم « لهداكم أجمعين » ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء هداية بعض ، وضلالة بعض آخر ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاء لا يسأل عما يفعل « قل » لهم « هلم » أى احضروا « شهداءكم الذين يشهدون » لكم « إن الله حرم هذا » أى ماتقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم إن الله أمرهم به ؛ و(هلم) اسم فعل لا ينصرف يستوى فيه الواحد والإثنان والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين ، وعند بنى تميم فعل يؤنث ويثنى ويجمع « فإن شهدوا » أى فإن تعمدوا الشهادة كذبا « فلا تشهد معهم » أى فاتركهم ولا تسلم لهم فإنهم على ضلال وليست شهادتهم مستندة إلا على الهوى « ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا » ووضع المظهر موضع المضمر فقال : أهواء الذين كذبوا بآياتنا » ، ولم يقل « أهواءهم » للدلالة على أن الذى يكذب بالآيات إنما تتبع الهوى لا غير وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها « و » لا تتبع أهواء « الذين لا يؤمنون بالآخرة » التى هى دار الجزاء « وهم بربهم يعدلون » أى يشركون فيجعلون له عديلا .

* * *

وإلى هنا ينتهى الربع الثالث من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن من الأصول والآراء ما يلى :

١ — التنويه بقدرة الله العظيمة فى خلق النبات والفواكه ، والأمر بأداء حقوق الله والفقراء فى الثمار والأنعام .

٢ — الرد على افتراءات المشركين فيما زعموه من التحليل والتحريم فى الأنعام ، من الغنم والإبل والبقر .

٣ — تقرير المحرمات من الذبائح وهى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير .

٤ — بيان ماحرم على اليهود ، وهو كل ذى ظفر ، وشحوم البقر والغنم إلا مااستثنى ، والرد على افتراءاتهم فى هذا السبيل .

٥ — حجاج المشركين الذين يزعمون كاذبين أنهم هم وآباءهم إنما أشركوا بمشيئة الله ، وإنما حرموا ما حرموا بمشيئة الله ، والرد عليهم فى ذلك بقوة ، وبتدفق حجة ، وروعة منطق ، وأجل بيان .

إن هذا الربع هو مثل ماسبقه فى حجاج الشرك ، والرد على المشركين ، وفى تقرير عقيدة التوحيد .

١٥١ — قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

١٥٢ — وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

١٥٣ — وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

هذه الآيات الثلاث من جوامع آيات القرآن الكريم ، ومن دلائل إعجازه وهى فى حكمتها وروعتها وبلاغتها فى الذروة من آيات الإعجاز .. وهى كذلك صورة واضحة للإسلام فى تعاليمه ومبادئه ومناهجه ، وفى أصوله وأفكاره ،

وفى خططه ونظامه .. إنهـا هى أصدق مايقرؤه الإنسان فى التعبير عن الإسلام وفى رسم صورة واضحة له ..

وهذه الآيات مع مافيها من رد على المشركين فى افتراءاتهم ، فيها كذلك بيان للمحرمات على المسلم : من الشرك ، وقتل الأولاد ، وقربان الفواحش ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقربان مال اليتيم . وفيها كذلك بيان للأصول العامة لأوامر الإسلام : من الإحسان إلى الوالدين ، ومن الوفاء بالكيل والميزان بالقسط ، ومن وجوب العـدل بين الناس ولو كان المتحاكم إليك ذا قرابة قريبة إليك ، ومن الوفاء بالعهد . . وهذه النواهى والأوامر هى أصول الإسلام وتعاليمه ومبادئه وحكمته ، وهى خلاصته وزبدته ، وهى كلها ترشد إلى اهتمام الإسلام بالمجتمع ، وتنظيمه له ؛ وأن شئون المجتمع ورعايتها هى فى مقدمة ما يعنى به القرآن الكريم .. ويوضح الله عز وجل فى الآية الثالثة أهمية هذه التعاليم ، فيؤكد أنها هى صراط الله المستقيم ، ودينه الواضح ، ويأمر باتباع هذا المنهج السليم ، والطريق القويم ؛ ويحذر من السير فى غير هذا السبيل ، حتى لا تصد المسلمين عن دين الله ، ولا تتفرق بهم عن طريقه الحق القويم . . ويؤكد الله عز وجل أن هذه التعاليم هى وصية الله إلى المسلمين، وأن اتباعه يورث التقوى ، ويكسب صفاء القلب وقوة العقيدة ، وفى ذلك ما فيه من الخير والفلاح للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الجامعة « قل » أى للمشركين « تعالوا » أى أقبلوا علىّ « أتل » أى أقرأ « ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا » وذلك أنهم سألوا وقالوا : ماذا حرم الله ؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم ذلك، وقوله تعالى « حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به » ، يرد عليه أن المحرم هو الشرك لا ترك الشرك ، والجواب أن معناه حرم عليكم أن لا تشركوا و (لا) زائدة كقوله تعالى « ما منعك أن لا تسجد » أى ما منعك أن تسجد ؟ وقيل : الكلام قد تم عند قوله « حرم ربكم » ثم قال تعالى : عليكم أن لا تشركوا به شيئا على وجه الإغراء ، وقال الزجاج : يجوز أن يكون هـذا محمولا على المعنى ،

أى أتل عليكم تحريم الشرك ، وجائز أن يكون على معنى أوصيكم أن لا تشركوا « وبالوالدين إحسانا » أى فأحسنوا بهم إحسانا . وقد جاء الإحسان هنا وطلبه فى موضع النهى عن الإساءة إليهما للمبالغة ، وللدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » أى من أجل فقر تخافونه ، والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء ، وكان بعض العرب يفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم « نحن نرزقكم وإياهم » أى أن دعواكم مخافة الفقر مردودة عليكم ، لأن الله هو المتكفل بالرزق لكم ولأولادكم وأنتم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئا ، وفى هذا احتجاج عليهم لأن الله تعالى إذ تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله « ولا تقربوا الفواحش » أى سائر المعاصى « ما ظهر منها وما بطن » أى علانيتها وسرها ؛ وقيل: المراد الزنا علانيته وسره ، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأساً فى السر فحرم الله عز وجل الزنا فى السر « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله » عليكم قتلها « إلا بالحق » وهى التى أبيح قتلها بسبب ردة أو قصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذى يوجب الرجم أو نحو ذلك ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة « ذلكم » إشارة إلى ما ذكر مفصلا « وصاكم به » أى أمركم به وأوجبه عليكم « لعلكم تعقلون » أى تتدبرون ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فإن كمال العقل هو التدبر « ولا تقربوا مال اليتيم » أى بأى نوع من أنواع أخذه والعمل فيه وقربانه « إلا بالتى » أى بالخصلة التى « هى أحسن » بماله كحفظه وتنميته وتثميره « حتى يبلغ أشده » أى ويستمر العمل فى مال اليتيم بالتى هى أحسن حتى يبلغ سن الرشد وهو سن نضوج عقله عادة ، وهو البلوغ بالسن أو الاحتلام وهو سن الثمانى عشر « وأوفوا » أى آتوا « الكيل والميزان بالقسط » أى العدل من غير تفريط ولا إفراط « لا تكلف نفساً إلا وسعها »

أى طاقتها فى إيفاء الكيل والميزان إذ لم يكلف المعطى أكثر ما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عليه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه ، وذكره عقب الأمر معناه أن إيفاء الحق عسر فعليكم بما فى وسعكم وما وراء الوسع معفو عنه « وإذا قلتم » أى فى حكم أو شهادة أو غير ذلك « فاعدلوا » فيه بالصدق « ولو كان » المقول له أو عليه « ذا قربى » أى من ذوى القربى « وبعهد الله أوفوا » أى ماعهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع وطاعة الله والتزام دينه « ذلكم » أى الذى ذكر فى هذه الآيات « وصاكم » بالعمل « به لعلكم تذكرون » أى تتعظون فتأخذون بما أمرتكم به « وإن هذا » الذى وصيتكم به « صراطى مستقيما » والإشارة فيه إلى ما ذكر فى السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة « فاتبعوه » أى بغاية جهدكم لأنه الجامع للعباد على الحق الذى فيه كل خير « ولا تتبعوا السبل » أى الطرق المخالفة لدين الإسلام « فتفرق » فيه حذف إحدى التاءين أى فتميل « بكم » أى هذه الطرق المضلة « عن سبيله » أى طريقه التى ارتضاها لعباده وبه أوصى « ذلكم » أى الأمر المذكور « وصاكم به لعلكم تتقون » الضلال والتفرق عن الحق .

١٥٤ — ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ .

١٥٥ — وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

١٥٦ — أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ .

١٥٧ — أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ .

١٥٨ — هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ .

هذه الآيات الخمس فى تقرير النبوات : نبوة موسى ورسالته ، ثم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته . وفيها تمجيد للعرب إذ نزلت فيهم رسالة سماوية كما نزلت من قبل على طائفتين من أهل الكتاب هما اليهود والنصارى ، وفيها قطع لعذر المشركين واحتجاجاتهم الباطلة ، وحتى لا يحتجوا بأنه لم تنزل عليهم رسالة من السماء كما نزلت على الأمم من قبل .. وفى هذه الآيات تنويه بالقرآن الكريم ، وتعظيم له وبيان لسمو منزلته فى الهداية والإرشاد ، ولوجوب التزامه والعمل به واتباعه ، وقد وصفه الله عز وجل أولا بأنه مبارك ، ثم وصفه ثانياً بأنه هدى ورحمة .. وأوجب اتباعه أولا ، وحرم من صدف عن آياته ثانياً ، وحذر من الإعراض عنه ، ومن أن يظلم إنسان نفسه بترك ما أمر الله فى هذا الكتاب الحكيم أو بإتيان ما نهى عنه .. وفى الآية الخامسة تهديد ووعيد ، تهديد بالعذاب الشديد للمشركين والضالين والمضلين والصادين عن سبيل الله وعن دينه القويم .

قوله تعالى « ثم آتينا موسى الكتاب » أى التوراة ، وثم للترتيب وإيتاء موسى الكتاب كان من قبل مجىء القرآن لا بعده ، والجواب عن ذلك أن

«ثم» لترتيب الإخبار أى ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب فجاءت «ثم» لترتيب الخبر لا لتأخير النزول «تماما» أى لم ينقص الكتاب عما يصلحهم شيئاً «على» الوجه «الذى أحسن» أى أتى بالإحسان فأثبت الحسن وجمعه، بما بين من الشرع، وبما حمى طوائف أهل الأرض به من الإهلاك العام وقد روى أن الله تعالى لم يهلك قوما هلاكا عاما بعد نزول التوراة؛ وقيل: تماما على المحسنين من قوم موسى فيكون الذى بمعنى (من) أى على من أحسن من قومه وكان فيهم محسن ومسىء؛ وقيل: الذى أحسن هو موسى أى إتماما للنعمة عليه لإحسانه بالعبادة والذى بمعنى (ما) أى ما أحسن «وتفصيلا» عطف على تماما أى وبيانا «لكل شىء» أى يحتاج إليه فى الدين «وهدى» أى فيه هدى من الضلالة «ورحمة» أى إنزاله عليهم رحمة لهم «لعلهم» أى بنى إسرائيل «بلقاء ربهم» أى بالبعث والجزاء «يؤمنون» أى ليكون حالهم بعد إنزال الكتاب وبعدما يرون من حسن شرائعه وفخامة كلامه وجلالة أمره حال من يرجو أن يجدد الإيمان فى كل وقت بلقاء ربه، وليذكروا ما أنعم الله عليهم من إخراجهم من مصر من العبودية والرق «وهذا» أى القرآن الكريم «كتاب» أى عظيم «أنزلناه» إليكم بلسانكم حجة عليكم «مبارك» أى كثير الخير والنفع والبركة «فاتبعوه» أى اتبعوا مافيه من الأوامر والنواهى والأحكام «واتقوا» الكفر «لعلكم ترحمون» أى باتباعه وهو العمل بما فيه؛ ثم بين تعالى المراد من إنزاله فقال: «أن» أى كراهة أن «تقولوا إنما أنزل الكتاب» أى التوراة والإنجيل «على طائفتين من قبلنا» أى اليهود والنصارى «وإن كنا» أى قد كنا أو وإنه كنا «عن دراستهم» أى تعلمهم وقراءتهم لكتابهم «لغافلين» أى لا نعرف حقيقتها ولا هى بلساننا «أو تقولوا» أى أيها العرب: لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ولكنه لا يجب اتباع الكتاب إلا على المكتوب إليه فلم نتبعه «لو أنا» أهلنا لما أهلوا له حتى «أنزل علينا الكتاب» أى جنس الكتاب «لكنا أهدى منهم» أى لما لنا من الاستعداد بوفور العقل وحدة الأذهان واستقامة الأفكار واعتدال الفطرة والإذعان للحق «فقد جاءكم بينة»

من ربكم » أى القرآن إذ فيه بيان وجهة واضحة تعرفونها على لسان رجل منكم تعرفون أنه أولاكم بذلك « وهدى » من الضلالة لمن تدبره « ورحمة » أى وهو رحمة ونعمة أنعم بها عليكم فتأملوا فيه واعملوا به « فمن » أى لا أحد « أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف » أى أعرض « عنها » فضل وأضل « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا » ولا يثوبون « سوء العذاب » أى شدته « بما كانوا يصدفون » أى بسبب إعراضهم « هل ينظرون » أى ماينظر هؤلاء المكذبون « إلا ان تأتيهم الملائكة » أى لقبض أرواحهم أو بالعذاب « أو يأتى ربك » أى أمره بالعذاب « أو يأتى بعض آيات » أى علامات « ربك » الدالة على الساعة كطلوع الشمس من مغربها ، وعن حذيفة والبراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة إذ طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تتذكرون؟ قلنا نتذاكر الساعة ، فقال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان، ودابة الأرض ، وخسفا بالمشرق ، وخسفا بالمغرب ، وخسفا بجزيرة العرب، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونارا تخرج من عدن « يوم يأتى بعض آيات ربك » وهو طلوع الشمس من مغربها كما فى حديث الصحيحين « لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » صفة لنفس « أو » نفسا لم تكن « كسبت فى إيمانها خيراً » أى طاعة إذ لا ينفعها توبتها ، قال صلى الله عليه وسلم : يد الله بسيطتان لمسىء الليل ليتوب بالنهار ولمسىء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، وقال صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه ، وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث إذا خرجن فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من المغرب .. « قل انتظروا » بعض هذه الأشياء « إنا منتظرون » ذلك ، ولنا الفوز وعليكم الويل .

١٥٩ — إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

١٦٠ — مَن جَآء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

هاتان الآيتان الكريمتان فيهما إنذار شديد لأهل الكتاب والمشركين والصادين عن دين الله وفيهما تهديد ووعيد لهم ، وفيهما تقرير للجزاء وأنه من جنس العمل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . . وقوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم » أى بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وافترقوا فيه . قال صلى الله عليه وسلم : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة . رواه أبو داود والترمذى والحاكم وصححاه . وفى بعض الروايات : قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى « ولو كانوا شيعا » أى فرقا مختلفة ، وهم اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة : كأهل الكتاب فإنهم ابتدعوا فى دينهم بدعا أوصلتهم إلى تكفير بعضهم بعضاً فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، وكالمجوس الذين فرقوا دينهم باعتقاد أن الآلهة اثنان : النور والظلمة ، وعبدوا الأصنام والنجوم . وجعلوا لكل نجم قسما يتوسل به فى زعمهم إليه ، وقيل: هم أهل البدع والشبهات من هذه الأمة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أهل البدع وأصحاب الأهواء من هذه الأمة ، وعن بعض الصحابة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال قائل : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشيا ، فإن من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وروى : إن أحسن الحديث

كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها « لست منهم فى شىء » أى من السؤال عنهم فلا تتعرض لهم « إنما أمرهم إلى الله » أى يتولى جزاءهم « ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » فيجازيهم به وهذا منسوخ بآية السيف « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » أى عشر حسنات أمثالها فضلا من الله تعالى « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » أى مثل السيئة التى اقترفها « وهم لا يظلمون » أى بنقص الثواب وزيادة العقاب ، وما ذكر فى أضعاف الحسنات هو أقل ما عد من الأضعاف . فقد قال صلى الله عليه وسلم : إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فله سيئة مثلها ، ومن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعا ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى : إن أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها له سيئة ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة وإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : الآية فى غير الصدقات من الحسنات ، فأما الصدقات فإنها تضاعف سبعمائة ضعف .

١٦١ — قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

١٦٢ — قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

١٦٣ — لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

١٦٤ — قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

١٦٥ — وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ.

هذه الآيات الخمس فيها خطاب للرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه ، وفيها تمجيد لدعوة الإسلام ومبادئه ، وفيها بيان لصراط الله المستقيم ودينه الحكيم ، ودفاع عنه ، وفيها تقرير للحساب والعقاب . . يقول الله عز وجل في هذه الآيات : قوله تعالى : « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك « إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم » بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والبراهين « دينا » المعنى وهداني صراطاً ، كقوله تعالى : « ويهديك صراطاً مستقيما » وهو نفس الدين ، فالدين بدل من الصراط على المحل « قيما » أي مستقيما « ملة إبراهيم » عطف بيان من « دينا » إذ الملة بالكسر الدين وإن فرق بينهما بأن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذي تسند إليه والدين لا يختص إضافته بذلك « حنيفا » أي مائلا من الضلالة إلى الاستقامة ، والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفا ، تنبيها على أنه دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام « وما كان » إبراهيم عليه السلام « من المشركين » رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم ، فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين « قل » يا محمد « إن صلاتي ونسكي » أي عبادتي من حج وغيره « ومحياي ومماتي » أي وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير ، أو الحياة والممات أنفسهما « لله رب العالمين لا شريك له » في ذلك « وبذلك » أي وبهذا التوحيد « أمرت وأنا أول المسلمين » أي من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي مقدم على إسلام أمته « قل » يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك « أغير الله أبغي » أي أطلب « ربا » أي إلها فأشركه في عبادتي ، وهذا جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم

والهمزة للإنكار « وهو رب كل شيء » فكل من دونه عبد وهو المعبود ، ليس في الوجود من له الربوبية غيره كما قال : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون» «ولا تكسب كل نفس » ذنبا « إلا عليها » أى إثم الجانى عليه لا على غيره « ولا تزر » أى ولا تحمل نفس « وازرة » أى آثمة « وزر » نفس « أخرى » جواب عن قولهم : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم « ثم إلى ربكم مرجعكم » يوم القيامة « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » فى الدنيا يتبين الرشد من الغى والحق من الباطل « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض » جمع خليفة لأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وقد تخلفت بأمته سائر الأمم ، أو يخلف بعضهم بعضاً فيها ، أو هم خلفاء الله تعالى فى أرضه يملكونها ويتصرفون فيها « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » أى فى الشرف والرزق « ليبلوكم » أى ليختبركم « فيما آتاكم » أى أعطاكم ليظهر المطيع منكم والعاصى « إن ربك سريع العقاب » لمن عصاه لأن ما هو آت قريب ، أو لأنه يسرع إذا أراده « وإنه لغفور » أى للمؤمنين «رحيم» بهم ، وقد وصف تعالى العقاب ولم يضفه إلى نفسه ، ووصف ذاته تعالى بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على أنه تعالى غفور بالذات وأنه كثير الرحمة مبالغ فيها قليل العقوبة .

وبهذه الآيات الجامعات التى خاطب بها الله عز وجل رسوله العظيم . والتى تدل على أخلاق النبي الكريم وعقيدته التى تمسك بها وعمل بها ، والتى يجوز من أجلها أن يتحدث عن نفسه بأنه هداه الله جل جلاله إلى صراط مستقيم ، وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين . . . هذه الآيات الكريمات من أجمع الآيات فى الدلالة على قوة العقيدة وصلابتها ، وعلى المنهج الذى يجب أن يكون عليه المسلم فى دينه وخلقه ؛ وهى ترشد إلى أن الله عز وجل قد هدى رسوله والمؤمنين به كذلك إلى صراط مستقيم ودين قويم ، دين الحنيفية البيضاء ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وما كان إبراهيم من المشركين حتى يحتج المشركون بأنهم على دينه ، بل كان من أول الموحدين ، وكان نبي

التوحيد ، وخليل الله وصفيه ، وكان المثل الأعلى فى قوة الإيمان بالله . .
وكذلك كان محمد صلوات الله ، وكان المؤمنون بشريعته ، والمتمسكون بهدايته ، صلاتهم ونسكهم ، ومحياهم ومماتهم ، لله رب العالمين ، لا شريك له .. وبذلك أمره الله عز وجل فى كتابه الحكيم ، وقرآنه الكريم ، وكان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للبشر فى قوة العقيدة وقوة الإيمان بالله ، وكان المسلم الأول الذى آمن بالشريعة المنزلة عليه قبل أن يؤمن بها أحد فى الأرض ، أو أنه كان أول من أسلم نفسه لله ، وأخلص وجهه لذاته الكريمة ، وتمثل الله عز وجل فى كل شىء ، وفى كل صغيرة وكبيرة . إن الرسول صلوات الله لم يشرك بالله ، ولم يحى حياة المشركين ، ولم يمل إلى عقيدتهم ولهوهم وباطلهم من صغره ، وكيف يشرك بالله ، أو يبغى ربا سواه . وهو رب كل شىء . . وهو محاسب كغيره على كل شىء ، ولن يحمل ذنوبه غير نفسه . وإلى ربه رجعاه ، وإلى مولاه مصيره ، وكذلك البشر عامة ، مرجعهم إلى الله ، فيحاسبهم على ماقدموا من عمل ، وينبئهم بما كانوا يختلفون فيه من أمر العقائد . والله تعالى هو الذى جعل المسلمين خلائف فى الأرض أى ملوكا وولاة ، أو خلفاء للأمم السابقة . أو أنهم ورثوا الأرض وورثوا حكم الدنيا ؛ ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى المال والجاه والحسب والنسب وفى العقيدة والخلق والعمل ، ليختبرهم ويبلوهم فيما أعطاه إياه . وهذا الابتلاء والامتحان سوف يفوز فيه الصادقون المؤمنون . فالله عز وجل بهم غفور رحيم ، وسوف يفشل فيه العاصون الطالحون ، فهو لهم سريع العقاب . شديد العذاب ، وما الله عز وجل بغافل عما يعملون ؛ ومن هذه الآيات الشريفة نعلم منزلة محمد صلوات الله وسلامه عليه عند ربه ، ونعلم مدى صدقه وبلائه ، ومدى قوة عقيدته وإيمانه وإخلاصه لله ، وثباته على دينه وعلى شريعة الإسلام التى كان أول المؤمنين بها صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وذريته أجمعين . . ولا عجب أن يكون الرسول محمد صلوات الله عليه مذكورا دائما من الله عز وجل بالخير ، موصوفا بالإيمان والإخلاص ؛ مشار إليه فى عقيدته وفى كل جوانب حياته وأخلاقه

وصفاته وعقيدته بالبنان ، مقدما عند الله والملائكة والناس أجمعين ، مؤتما به في عمله وقوله ، وفي كل شيء يصدر منه ، مفضلا على البشر جميعاً في صفاته وشخصيته وأخلاقه وأعماله .

وحقاً لقد كان محمد صلوات الله عليه أعظم شخصية ظهرت في العالم كله خلال مختلف عصور التاريخ ، كان مثلا أعلى للإنسانية في حياتها الطويلة ، وكان ملاذا للمثل العليا ، وللقيم الروحية في الحياة ، وحسبك به من رسول غير مجرى الحياة ، وإنسان بدل سير التاريخ ، وبشر جميع صنوف الكمالات ، وقائد ضرب أروع الأمثال ، ومعلم للبشرية : بدلها بالظلام نوراً ، وبالجهل علماً ، وبالوثنية والشرك إيماناً وتوحيداً ، وبالوحشية مدنية وحضارة وعمراناً . كان في طفولته ويتمه مثال النبل والجمال والكمال ، وفي شبابه مثال الأمانة والعفة والخلق الرفيع ، وفي رجولته كان أرفع شخصية في مكة ، وكان الحكم بين القبائل حين اختلفت على من يضع الحجر الأسود في مكانه يوم أن جددت قريش البيت العتيق ، ثم نزل عليه الوحي من السماء ، وأضاف إلى هذه الكمالات اللانهائية كمالا آخر مستمداً من الله وعنايته . وسخرت به قريش وناوأوه وعذبوه ، وشردوا أنصاره وفتنوهم ، ومحمد صامد صمود الجبال لا تلين له قناة ، ولا يفرط في أمانة .. إن من شأن الإنسان أن يجامل ويداري وينافق ، حين يشتد الظلم ، وأن يسكت عن عقيدته أحيانا حين يسلط عليه العذاب ، ومع ذلك فإن محمداً لم يلن ولم يهن ولم يسكت ولم يجامل وقال لعمه : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه .. ثم هاجر بدينه وهاجر من بلاد قومه ، وصار الزعيم الروحي الأكبر لكل من آمن برسالته ، كما صار الحاكم الأكبر للمدينة ، فضرب أروع الأمثال في السياسة والشورى والديمقراطية وحب العدالة والإيمان بالحق والحرية والإخاء والمساواة . وقاد محمد المسلمين ليدافع عن العقيدة الإسلامية جيوش المشركين ، فكان أعظم قائد في الحرب ، كما كان أعظم قائد في السلام ، ومعاملته للأسرى وللقبائل المهزومة وللبلاد

المفتوحة دستور عظيم من التسامح والإنسانية ، وهو الذى قال لخصومه من قريش بعد فتح مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم استقرت الدعوة الإسلامية فى الحجاز ، فبعث بكتبه ورسله إلى الملوك والأمراء فى كل مكان حتى إلى كسرى وقيصر ؟ نعم وأيم الله ، أرسل إلى كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام ، وهما القادران على أن يدكا جزيرة العرب كلها بمن فيها وما فيها دكا بالجيوش والسلاح ومن عجب أن تنبغ شخصية محمد اليتيم فى طفولته فى وقت مبكر جداً وغير مألوف ، أليس ذلك معجزة لرسول الله حتى وهو فى المهد صبى ، وكذلك من شأن الشاب أن يعيش كما يعيش الناس فى بيئته ، وأن يفكر فيما يفكرون فيه ؛ ولكن محمدا خالف ذلك كله فأضرب عما فيه قومه وأخذ يبحث عن الحق والنور . ومن شأن أبناء الأسر الكبيرة أن ينشأوا على اللهو والترف ، أو على الفجور والطغيان ، ولكن محمدا لم يكن كذلك بأية حال فى شبابه . معجزات فى معجزات فى حياة الرسول الأكرم ، وشخصية يا لها من شخصية ، اهتزت لها الجبال . وهتفت باسمها الأجيال ، ولا يزال التاريخ يذكرها بالإعجاب والتقدير والإجلال . فسلام عليك يا محمد فى الخالدين ، وسلام على أمتك فى العالمين ، والمجد لدينك كلما أضاء النيران ، وتعاقب الجديدان . وأنت حقا آخر المرسلين ، وخاتم النبيين . إن رحمة الله التى وسعت كل شىء هى التى أرادت أن تهدى هذا العالم الضال ، فاختارت محمدا العربى اليتيم الفقير الناشىء فى جوف الصحراء ليكون الرسول الملهم . والنبى المرجى ، وليرد البشرية إلى السلام والطمأنينة والإيمان ، وليدعوها إلى الحرية والإخاء والمساواة . . صلى الله وسلم عليك يا رسول الله ومحرر الإنسانية ، ومنقذ الشعوب ، ومحطم الاستعمار ، ومن اهتزت لذكره الطغاة وهتفت باسمه الحياة ، وعنت لاسمه وجوه العظماء ، وآمنت برسالته الأمم . صلى الله وسلم عليك يا محمد بن عبد الله فى جلالك وجمالك ، وتواضعك وحلمك ، وعظمتك وعزة نفسك وثباتك فى الشدائد وصبرك على المحن ، وتحديك للتاريخ وللناس فى سبيل رسالة الله وشريعته العظمى « الإسلام » .

صلى الله وسلم عليك فى مولدك ونشأتك وفى طفولتك وشبابك ، وفى تلقيك للوحى فى حراء ، وتبليغه لقومك وأهلك ، وفى هجرتك وغزواتك ، ويوم صعدت روحك إلى الرفيق الأعلى بعد أن أديت الرسالة ، وبلغت الأمانة . ونشرت الوحى ، وأذعت كلمة الله على الأفواه ، وحطمت الأصنام من بيت الله العتيق ، ومن كل مكان فى جزيرة العرب . صلى الله وسلم عليك يا ابن عبد الله ، فلقد أنشأت أساس حضارة مهذبة ، وأقمت دعائم مدنية رفيعة ، وسارت باسم الله وباسمك الجيوش الإسلامية تنشر النور وتبلغ الشريعة وتهزم الظلم وتحطم الطغيان وتنشر العلم والثقافة فى كل مكان . صلى الله وسلم عليك يا نبى العرب يا من حطمت الفروق الظالمة بين الإنسان والإنسان ، وحاربت العصبية والطائفية ، ومحوت سيادة العناصر والألوان والأجناس ، وأكدت أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى والعمل الصالح . صلى الله وسلم عليك يا رسول الحرية والسلام يا من اعتزت بك وبشريعتك كل الطوائف والأفراد ، فحررت المرأة والعامل والخادم والصانع والرقيق من ذل الاستبداد والاستعباد ، وجعلت الشعوب تشعر بمعنوياتها ، والرعاة يعتزون بحريتهم وقامت شريعتك مقام السيف فى تأديب الطغاة وتقليم أظافر الرجعية والجمود والإقطاع والتعصب . صلى الله عليك وسلم يا نبى الرحمة ويا من أثنى عليه الله جل جلاله وفى وحيه ، ونزل الفرقان ناطقاً برسالته . وأكد الوحى ختمه للرسالات والنبوات فى الأرض ، وارتعبت اليهودية المحرفة وسواها من الشرائع المبدلة كلما ذكر اسمك أو ذكرت رسالتك وشريعتك . صلى الله وسلم عليك يا خير الخلق ويا هادى الإنسانية ومرشد الناس . ومهذب الجماعات وصديق المظلوم ، ويا من انتصرت على الشرك والوثنية والظلم والضلال والظلام ، بتأييد الله ونصره وعونه ورعايته ، ولا زالت الشعوب الإسلامية ينصرها تأييد الله وعونه ورعايته مهما تألب عليها المستعمرون ، ودبر لها المكائد المتآمرون ، ومهما حاول الغرب المسيحى القضاء على شريعتك ورسالتك وعلى معنويات أتباعك وحملة

رسالتك ، والنصر بيد الله يهبه من يشاء من عباده المؤمنين . صلى الله وسلم عليك ، والعزة لله ولشريعتك ، والنصر والتأييد لكلمة الحق ودعوة الحرية ورسالة العزة والكرامة والإخاء والمساواة : للإسلام الكريم ولشعوبه المكافحة فى الحياة . وعند ما نرى هرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية يتحدث عن الرسول والرسالة ، نرى العجب العجيب ، والأمر الغريب . فقد أرسل إلى هرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية كتاباً مع دحية الكلبي فعظم الرسول ورد رداً جميلا ، وأرسل هرقل قائد الروم إلى أبى سفيان بن حرب زعيم قريش فى ركب كانوا تجارا فى الشام فى المدة التى ماد فيها محمد صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوا إليه ببيت المقدس فدعاهم لمجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يدعى أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : أنا أقربهم نسبا . فقال أدنوه منى وقربوا أصحابه فجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا ـ يعنى أبا سفيان ـ عن هذا الرجل ـ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فإن كذبنى فكذبوه . قال أبو سفيان : فو الله لو لا الحياء من أن يؤثروا على الكذب فأعاب به لأنه قبيح ولو على عدو لكذبت عليه . ثم سأله أسئلة كانت غاية ما يطمح إليه سائل يريد أن يسبر غور الحقيقة ويجلو صفحتها ، وابتدأ يرد عليه برأيه فقال للترجمان : قل له ـ يعنى أبا سفيان ـ : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا . فقلت : لو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دولا يدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والزكاة والصدق والصدقة والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهـذه صفة النبي . ولقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منـكم وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ؛ ثم دعا هرقل بكتاب النبى صـلى الله عليه وسلم فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين[1] ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . قال أبو سفيان : فلما قال هرقل ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب . وارتفعت الأصوات، وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر[2] أمر ابن أبي كبشة[3] إنه يخافه ملك بني الأصفر[4] . ثم سار هرقل إلى حمص وأذن لعظماء الروم فى دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم أطلع عليهم وقال : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، فلما رأى نفرتهم ، ويئس من الإيمان قال : ردوهم على فإنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه .

---

(١) عامة الشعب (٢) عظم

(٣) كنية أحد أجداد النبى لأمه (٤) الروم

ولقد ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشمائل الطيبة . وكذلك كل ناشىء كتب الله أن يترقبه المستقبل السعيد ، تلمح فى نشأته دلائل سعادته وتقرأ فى مقدمة حياته ما ينم عن نتائجه : وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة خصاله الطيبة التى تحلت بها نفسه الكريمة . وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه . ورسولا بينه وبين خلقه ، وأولى تلك الخصال : تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها وكل ملاهى السوء التى كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر وما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين . كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى إذا جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر . فضرب على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أهم بعد ذلك بسوء . وكما بغضت إلى الأوثان والشعر وملاهى أهل الجاهلية حبب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير ، وكذلك الإنسان الكامل إذا نشأ فى بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبلة لا يرضاها ولا سبيل له إلى تحويلهم عنها يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم ويؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كمال النفس ينأى بها عن مظان السوء وجلسائه .

ومن أهم خلاله الكريمة صلى الله عليه وسلم الصدق ، فقد شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه . لقى رجل أبا جهل ألد أعداء الرسول . فسأله : يا أبا الحكم ، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا : فخبرنى عن محمد . أصادق أم كاذب . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط . وفى هذا يقول الله تعالى لرسوله « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم

وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر، والله ماهو بساحر.

ومن أهم خلاله أمانته صلى الله عليه وسلم، فقد كان لقبه فى الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه ويودعونه ودائعهم، قال ابن اسحاق: ماكان بمكة أحد عنده شىء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته. ولما اختلفت قريش فى الجاهلية عند بناء الكعبة فى من يضع الحجر الأسود اتفقت كلمتهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم، فإذا محمد أول داخل فقالوا: هذا محمد هذا الأمين قد رضيناه حكما وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته يتحاكمون إليه فى الجاهلية، يفصل فى خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ويرضون بحكمه وعدله. ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته، وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل أفضل منبت طيب لنمو الفضائل والكمالات، ولذلك صادف منه التأديب الإلهى نفسا كريمة تكملت بما أدبها الله به من الأدب الحسن، فنال صلى الله عليه وسلم كمال الخلق وشرف الفضيلة، حتى رأى الناس من حلمه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله واستحق ثناء الله عليه فى كتابه الكريم «وإنك لعلى خلق عظيم». ولما بعث صلى الله عليه وسلم وقام يدعو الناس إلى التوحيد تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله فى سبيل الدعوة من الشدائد وما عامل به المدعوين من صبر على أذاهم وإحسان فى مقابلة إساءتهم مما كان طريقاً لهداهم وعلاجا لهم، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام فى مكة وهى حصن الأصنام ومهد الوثنية والوثنيين يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان؛ قام وهو يتيم لا يعتمد فى دعوته على جاه أو عصبية، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة، وهو وحيد يخذله أدنى الأقربين إليه، وليس له من دون الله ناصر ولا معين، قام يدعو قوما أشداء أخذتهم العزة بالإثم وألفوا ما وجدوا عليه آباءهم، واستعزوا بما لهم من حول وسلطان، فوضعوا فى سبيله كل عقبة وسدوا فى وجه دعوته كل طريق، وآذوه

ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هـذا ورسول الله لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكا بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ولا الفتور إلى عزيمته حتى غلب الحق الباطل ، وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وأبدل وحدته أمة قوية ويتمه أفضل عصبية . . ولقد احتمل الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد . وصنوفا من الأذى وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يثبطه عن دعوته . وكذلك الداعي إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره . ويواصل السير فى سبيله . مهما لاقى من صعاب ونال من أذى وعنت ومقاومة وعناد .

استهزؤا بالرسول ، فكان إذا مر عليهم يقولون سخرية منه : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، وكان عمه أبو لهب جارا له . ويتعمد رمى القذر على بابه . فكان رسول الله يلقى القذر ويقول: يا بنى عبد مناف أى جوار هذا، وعقبة بن أبي معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله وهو فى صلاته ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت ابنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره ، وبينما كان يصلى فى الكعبة إذ أقبل عقبة بن معيط ووضع ثوبه فى عنقه واشتد فى خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟ وما زالوا يبتلونه ومن تبعه بضروب الكيد والمحن حتى ائتمروا على قتله ، واضطر فرارا بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده ، ولم تزلزل هذه الشدائد من إيمانه ولم تزده إلا ثباتا على دعوته ، وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصده عن سبيله ويحاول إطفاء نور الحق الذى يدعو إليه ، ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحبب إلى النفس المكاره والفوز للحق والعاقبة للمتقين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .. على أن الفضل الأكبر فى نجاحه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى أخلاقه وشمائله ، لأنه أقام من صفاته

براهين عدة على صدقه وأن ما يدعو إليه حق وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفى طعنهم ويرد كيدهم . ولما اجتمعوا فى دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمدا فى موسم الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه . كانوا كلما افترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من خلال الرسول التى تفضح مفترياته وتنتج نقيض قصده ؛ وكثيرا ما كان حلمه عند الغضب وعفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسىء سبباً فى الإيمان به . وإجابة دعوته واجتماع القلوب حوله .. جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله يتقاضاه دينا فجذب الرسول من ثوبه وأغلظ فى القول وقال : يا بنى عبد المطلب أنتم قوم مطل، فهم عمر بالانتقام منه ومقابلة الغلظة بالغلظة ، فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر « أنا وهو كنا أحوج منك إلى خير من هذا يا عمر ، تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء » ثم قضى للدائن دينه وطيب خاطره على ما روعه عمر . وكان هذا سببا فى إسلام اليهودى . ولما جاء نصر الله والفتح ودخل الرسول المسجد الحرام جاءه أشراف قريش وساداتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم فقال لهم « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا، أخ كريم . وابن أخ كريم ، قال : أقول لكم ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ؛ وكان عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . لقد دعا نوح على قومه فقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ولو دعوت علينا لهلكنا . ولقد وطىء ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك فما زدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وهكذا كان رسول الله داعيا بأخلاقه وأعماله كما كان داعياً بأقواله .

هذا الربع - الرابع - من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، هو فى جملته تفصيل لأصول الإسلام ، ولأهم ما اشتمل عليه من مبادىء ومثل . . وفى صدره نهى قوى صريح واضح عن كثير من الأعمال التى تتنافى مع روح

الإسلام الكريم . نهى عن الشرك ووأد البنات ، وقربان الفواحش ، وعن القتل ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ سن الرشد ، ويستطيع عندئذ أن يباشر التصرفات المالية مباشرة كاملة وفى صدر هذا الربع كذلك أمر بالإحسان إلى الوالدين ، وفيه كذلك أمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وبالعدل فى كل قول وفى كل عمل كذلك ولو مع ذوى القربى ، وبالوفاء بالعهد .. وهذه النواهى والأوامر فى جملتها هى أهم تعاليم الإسلام ؛ والنهى عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين قد جمعا معا فى سياق واحد فى هذا المقام وفى آيات أخرى عديدة ، وفى هذا تنبيه على أن الإحسان إلى الوالدين بمنزلة عظيمة من الدين ، وأنه من أمهات مبادىء الإسلام ، وأنه هو وتوحيد الله أهم وأعظم الأصول فى شريعة الإسلام .. ووأد البنات ، وإتيان الفواحش والقتل كذلك هذه الثلاثة هى من أعظم الأشياء خطراً ، وأكبرها أثراً على الأفراد والجماعات ، والقتل وإن كان داخلا فى الفواحش إلا أنه أفرد وحده عنها لعظم أمره ، وكثرة خطره ، ويلى هذا النهى عن قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ سن الرشد ، والأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والأمر بالوفاء بالعهد .. ويلاحظ أن صدر الربع فى بيان المحرمات على المسلمين ، أى فى بيان المنهيات لا فى بيان الأوامر ، وكأن الأمر بالإحسان إلى الوالدين قد تضمن النهى عن عقوقهم ، والأمر بإيفاء الكيل والميزان قد تضمن النهى عن التطفيف فيهما « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » ، وكأن الأمر بالوفاء بالعهد تضمن النهى عن نقض العهود . . ولنا أن نذهب إلى أن قوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » فيه حذف ، والمعنى : أتل ما حرم ربكم عليكم وما فرض ربكم عليكم ، أو ما حرم عليكم وما أمركم به . . والوفاء بالعهد يتناول الوفاء بما عاهد عليه الإنسان نفسه أو غيره ، وبما عاهد عليه ربه كذلك .

وقوله عز وجل « وأن هـذا صراطى مستقيما » يصح أن يكون عطف تفسير إجمالا للسابق . . أى وأن هذه النواهى والأوامر السابقة هى صراطى مستقيما فاتبعوه ، ويصح أن يكون كلاماً آخر معطوفا على « ما حرم ربكم عليكم» أى : تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ، وأتل عليكم أيضاً أن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، أى : وأتل عليكم ضرورة اتباع هذا الدين الحق ، والشريعة المثلى ، دين الإسلام وشريعة التوحيد ؛ وعلى هذا فالإشارة فى قوله تعالى « هذا » ترجع إلى القرآن أو إلى الإسلام أو إلى ما ورد فى سورة الأنعام من تعاليم . أما على الرأى السابق فالإشارة « هذا » راجعة إلى النواهى والأوامر المذكورة فى قوله تعالى « ألا تشركوا به شيئاً » الخ .

وقد أشار الله عز وجل فى هـذا الربع إلى رسالة موسى ، إذ أن قوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » فيه إشارة إلى شريعة الإسلام وأهم مبادئها ، فكأن الله عز وجل قال : هذه هى شريعة الإسلام ، ثم هذه هى شريعة موسى ، والعطف بـ(ثم) هنا ليس للترتيب التاريخى ، بل للترتيب الذكرى ؛ وقد جاء ذكر شريعة موسى ضمن ذكر الكتاب الذى أنزل عليه وهى التوراة . وذكر الله عز وجل بعد ذلك القرآن ووصفه أعظم وصف ، وهو أنه «مبارك» وأمر المسلمين باتباعه كما أمرهم بالتقوى التماساً منهم لرحمة الله ورضوانه ، وقد ذكر الله تعالى عقب ذلك أن نزول القرآن يقطع عذر المشركين ، وأباطيل المدحضين ، حتى لا يقولوا : إنه لم ينزل علينا كتاب كما نزل على اليهود والنصارى ، ثم وصف الله عز وجل القرآن ثانياً بأنه بينة من الله وأنه هدى ورحمة ، وهدد وأنذر من يعرض عنه بالعذاب الشديد . . وفى ختام هـذا الربع يبين الله عز وجل شريعة الإسلام التى كان محمد عليه السلام أول المؤمنين والمسلمين بها ، وشريعة الإسلام ـ وهى التوجه إلى الله بالعبادة وحده لا شريك له ـ هى ملة إبراهيم حنيفا ، وهى الصراط المستقيم ، وهى أن تكون صلاة المسلم ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له ، وهى التجرد من الشرك فى كل شىء ، والإيمان بالحساب والعقاب ، والرجعى إلى الله عز وجل يوم القيامة ، يوم

لا ينفع الإنسان إلا عمله .. ثم ذكر الله عز وجل المسلمين بفضله عليهم ، وبأن جعلهم ملوكا فى الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بالعمل الصالح والخلق الكامل ، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله سريع الحساب شديد العقاب ، وهو كذلك غفور رحيم بعباده المخلصين الصادقين الأوفياء بما عاهدوا الله عليه .

* * *

هذه هى سورة الأنعام ، السورة المكية الكريمة ، التى اشتملت على ما اشتملت عليه من دعوة إلى التوحيد ، وحرب للشرك والمشركين ، ورد عليهم ، إبطال لمزاعمهم ، وتكذيب لأباطيلهم ، وهى من السور الطوال التى تعد من روائع سور القرآن الكريم ، ومن أوائلها إعجازا وبلاغة وروعة ، والأنعام جمع نعم - بوزن أمل - وهى الحيوانات الراعية ، من الإبل والبقر والغنم ، وقال ابن الأعرابى : النعم الإبل خاصة والأنعام الإبل والبقر والغنم ، ومن المادة : النعمة : الخفض والدعة والمال ، والنعمة بفتح النون : المسرة والفرح والترفه ، والنعمى : مثل النعمة ، وفلان واسع النعمة أى واسع المال ، ونعمة عين بضم النون : أى قرة عين ، يعنى أقر الله عينك بطاعتك واتباع أمرك ، وريح النعامى بضم النون : ريح الجنوب وهى أبل الرياح وأرطبها ، وقيل : هى ريح تجىء بين الجنوب والصبا ، ومن المادة : أنعم الرجل : إذا شيع صديقه حافيا خطوات ، وهذه المادة ، وهى النون والعين والميم ، فى جملتها تدل على الترف والنعيم والسرور والخير والمال والجمال ؛ وتسمية هذه السورة بسورة الأنعام ، لأنها اشتملت فى أواخرها على ذكر الأنعام فى عدة آيات كريمة : وجعلوا لله مما ذرأ[1] من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا[2] وقالوا : هذه أنعام وحرث[3] حجر[4] ، لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ،

---

(١) أى خلق .
(٢) آية ١٣٦ من سورة الأنعام .
(٣) الحرث : الزرع .
(٤) أى حرام .

وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون[١] ـ وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء[٢] ، ـ ومن الأنعام حمولة[٣] وفرشا[٤] ، كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين[٥] .. ثمانية أزواج[٦] : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين[٧] . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء ، إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين[٨] .. هذه الآيات التى ورد فيها ذكر « الأنعام » فى هذه السورة الكريمة ؛ ومن أجل ذلك سميت السورة بهذا الإسم ؛ وهو اسم غريب عجيب ، وغرابته فى إطلاق اسم « الأنعام » على مجموعة طويلة من البلاغة المعجزة النادرة التى ليس لها مثيل فى روعتها وعظمتها وجلالها وسحرها ونورها ، وقد وجدنا أن أسماء سور القرآن الكريم تختار دائما من الأسماء العجيبة الغريبة ، كما اختير اسم « البقرة » للسورة المعروفة ، وآل عمران لسورة أخرى ، والنساء لسورة ثالثة ، والمائدة لسورة رابعة ، وهكذا . وقد يكون السر فى اختيار اسم « الأنعام » لهذه السورة أن المخاطبين بها هم مشركو العرب من قريش وغيرهم ، والأنعام ، أو الإبل خاصة من بينها سمة خاصة للعربى ، تدل عليه ، وتشير دائما إليه ، فكأن كلمة الأنعام ترادف كلمة العربى أو هى دلالة على العرب ، ولازم للعربى فى كل وقت . . فاستعملت الأنعام لتدل على المشركين وعلى العرب الذين حملوا لواء الشرك

---

(١) آية ١٣٨ من سورة الأنعام .
(٢) من آية ١٣٩ سورة الأنعام .
(٣) أى تتخذ للحمل والعمل .
(٤) أى زينة .
(٥) آية ١٤٢ من سورة الأنعام .
(٦) أى خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام .
(٧) آية ١٤٣ من سورة الأنعام .
(٨) آية ١٤٤ من سورة الأنعام .

ودافعوا عنه ، أو أن استعمال الأنعام للسخرية بالمشركين ، وكأن الأنعام هم المرادون بها، كما تقول للرجل البليد : هو من الأنعام ، وهو كالحمار.. فالمراد أن هؤلاء المشركين فى بلادتهم وشركهم وبعدهم عن التوحيد كالأنعام المسخرة التى لا عقل لها ولا ذكاء لديها ، ولا فهم لها ، والتى رضيت بأن تعيش عيشة الحيوانات السائمة ، لا ترفع إلى السماء رأسا ، ولا تمد إلى المثل العليا طرفا . .

وهذه السورة فى جملتها أعظم دفاع عن التوحيد ورسالات السماء ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهى فى جملتها وتفصيلها لا تخرج عن هذا الغرض ، ولا تبعد عنه ؛ وهذا أمر عجيب فى البلاغة العربية ، أن تكون مجموعة طويلة من البلاغة فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، ومعنى واحد ، وغرض واحد ، لا تتعداه ولا تبعد عنه ؛ وهذه هى الوحدة الفنية والموضوعية للفصول البليغة ؛ وهى يطالب بها فى النثر ، كما يطالب بها فى الشعر ، ولا نكاد نجد فصلا نثرياً طويلا فى الأدب العربى ، له مثل هذه البلاغة ، مع هذا الطول ، وله مثل هذه الوحدة ، مع ذلك الإطناب ؛ ولم تكن العرب تعرف شيئا من ذلك ؛ ولا تلم فى بلاغتها بشىء من هذه الخصائص ؛ وذلك من أسرار بلاغة القرآن الكريم ، ومن مظاهر إعجازه التى لم يتناولها الباحثون ولا الدارسون بعد ؛ والعجب لبلاغة القرآن الكريم وفصاحته ، هذه البلاغة الباهرة ، وتلك الفصاحة النادرة ، التى تمثلت فى كل شىء ، وظهرت فى كل آية .. ولقد كان بلغاء العرب وكتابها وخطباؤها لا يستطيعون أن يكتبوا فقرات طويلة لها هذا السحر وهذا الرونق وهذا الإعجاز ، فما بالك بهذه السورة وهى ينتظمها غرض واحد ، وفكرة واحدة ، وموضوع واحد ؟ وما بالك بهذه النظرات الحكيمة ، وبهذا التناول الفنى الغريب ، وبذلك النور الإلهى العجيب ، وبهذا الإعجاز السماوى الحبيب .. ما بالك بهذا كله وبغيره ، مما اشتملت عليه السورة الكريمة ، ومما هو دليل على إعجاز القرآن ، وأنه منزل من السماء ، وأنه كتاب مبلغ من عند الله ، نزل به الوحى على محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته وأصحابه أجمعين .

إن سورة الأنعام بما اشتملت عليه من دفاع عن التوحيد ، ومن إبطال لدعوات الشرك والمشركين ، ومن إقامة البراهين الواضحة فى السماء والأرض على وجود الله وقدرته ، ومن إثبات الرسالات والنبوات واليوم الآخر ، ومن نفى مزاعم الجاهلين والكافرين والمشركين والصادين عن دين الله ؛ لهى وثيقة فريدة فى هذا الجانب العظيم . . والسورة من مطلعها إلى ختامها تسير على هذا المنوال لا تخرج عنه ، وتمشى فى هذا التيار لا تحيد ، إنها فى جميع آياتها فكرة واحدة متصلة ، ونداء إلهى متميز ، ودفاع ما بعده من دفاع عن الله والتوحيد وقدرة إله الكون والحياة ، وعن الرسل والرسالات ، وعن حقائق النبوات وأصولها العامة ، وهى كلها أسلوب متدفق ، وحجة مقنعة ، ومنطق قوى ، ومعان متلاحمة ، ونغمة متصلة ، متحدة الأهداف والغايات ، فتبارك الله الذى نزل هذا الكتاب المعجز العظيم على نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وذريته أجمعين .

(٧)

ســـورة الأعراف

تمهيد

سورة الأعراف هي السورة السابعة فى المصحف الشريف ، ومن سور القرآن الكريم الطوال ، وقد نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن) ، وهى مكية ، وآياتها مائتان وخمس أوست آيات ، ويستثنى منها الآيات ١٦٣ — ١٧٠ فهى مدنية ، وهى قوله تعالى : « واسألهم عن القرية » حتى قوله تعالى « وإذ نتقنا الجبل » . وإذا علمنا أن سورة الجن قد نزلت فى رجوع الرسول صلوات الله عليه من الطائف وكان قد سافر إليها سنة عشر من البعثة النبوية الكريمة ليعرض على أهلها الإسلام ، فيكون نزول سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء . وهذه السورة سميت سورة الأعراف لقوله تعالى فيها فى الآية الثامنة والأربعين : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .. وهذه السورة تشتمل على دعوة الله عز وجل للناس عامة وللمشركين خاصة إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها التحذير من مقاومة الإسلام ورسالة القرآن ومن مصارع الأمم السابقة الهالكة ، وفيها إنذار شديد للمشركين بقص أحوال الأولين ومصائرهم ، وبذكر أخبار الأنبياء والمرسلين وموقف أممهم منهم ، وقد أخذ المشركون فى هذا بطريق الترهيب والترغيب ، بعد أن أخذوا فى سورة الأنعام بطريق النظر والدليل ، ولهذا جاءت سورة الأعراف بعد الأنعام ، وهما معا من السور الطوال . . وفى الأعراف ذكر لما أجمل فى سورة الأنعام من أخبار الأولين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف – الربع الخامس من الجزء الثامن

١ – المص .

٢ – كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

٣ – اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ .

هذه الآيات الثلاث هى مفتتح سورة الأعراف ، ومبتدأ الربع الأول منها ، وهى كذلك مطلع الربع الخامس من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد بدئت بتمجيد القرآن كتاب الله العظيم ، وبيان أثره وأنه ذكرى وعظة وعبرة للمؤمنين ، ليؤمن من آمن ، ويكفر من كفر .. وقد أمر الله عز وجل المسلمين باتباع هذا القرآن الكريم ، والعمل بأوامره ونواهيه ، ونهاهم عن الشرك وعن اتباع أولياء من دون الله ما أنزل الله بهم من سلطان ، فى هذه الآيات الثلاث تمجيد للرسالة ودعوة إلى الإيمان بها ، وتحذير من الكفر والشرك واتخاذ آلهة غير الله . . وفى هذا تحذير ما بعده من تحذير للمشركين والكافرين . والأمر هنا فى قوله تعالى (اتبعوا) إما للمسلمين خاصة ، وإما للعرب الذين نزلت عليهم الرسالة عامة .

وقوله تعالى فى مطلع هذه السورة (المص) للتفخيم وبعث الروعة فى نفوس السامعين ، على ما سبق أن ذكرناه فى (الم) ، فهذه حروف مركبة فى الرسم على شكل كلمة ذات أحرف أربعة لكنها تقرأ بأسماء هذه الحروف ساكنة هكذا : ألف . لام . ميم . صاد – وقد افتتح الله عز وجل بعض سور

القرآن ببعض حروف الهجاء ، واختلف فى معناها فى هذه المواضع على ما سبق أن ذكرناه فى الجزء الأول وفى مطلع سورة آل عمران ، فقيل : هذه الكلمات هى أسماء ألقاب للسور المبتدأة بها ، وقيل: هى أسماء لله ، أوللقرآن ، أو لمحمد عليه السلام ، أو هى مما استأثر الله عز وجل بعلمه ، أو هى دلائل على إعجاز القرآن ، إذ أنه مركب من مثل هذه الحروف التى ينطق بها العرب، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثله كله أو بعضه أو بمثل آيات منه ، إلى غير ذلك من الآراء فى شرح ذلك .

وقوله تعالى فى الآية الثانية من هذه الآيات الثلاث «كتاب» أى هذا كتاب ، أو هو كتاب ، والمراد بالكتاب السورة أو القرآن . «أنزل إليك» صفة لكتاب ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . «فلا يكن فى صدرك حرج» أى ضيق «منه» أى لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه ، وأذاهم ، وكان يضيق صدره من الأداء ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ، وقيل: الحرج الشك والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : والمراد أمته . وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر كما أن المتيقن منشرح الصدر «لتنذر به» أى أنزل للإنذار «وذكرى» أى وتذكرة «للمؤمنين» والمعنى : لتنذر به كل الناس وكل البشر ، لا العرب خاصة ، فحذف المفعول من (تنذر) يدل على عموم رسالة محمد عليه السلام لكل من أمكن إنذاره وتذكيره من العقلاء .

وقوله تعالى «وذكرى للمؤمنين» أى لمن آمنوا بالله وبشريعة الإسلام ، والإيمان لغة التصديق وشرعا التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، وخلاصة الإيمان ثلاثة أمور: اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بمقتضاه ، وهذا عند جمهور المحدثين ، والأصح أن الإيمان هو التصديق وحده ، ويدل له أنه تعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال : كتب فى قلوبهم الإيمان ، وقال : وقلبه مطمئن بالإيمان ، وقال : ولم تؤمن قلوبهم ، وعطف عليه العمل الصالح فى مواضع لا تحصى ، وقرن

بالمعاصى ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ـ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، فلو لم يكن الإيمان التصديق فقط بل هو وترك المعاصى لم يكونوا مؤمنين ، وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره : إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وذلك محمول على الإيمان .

هذا وحرج الصدر : ضيقه وغمه ، أخذ من الحرجة التى هى مجتمع الشعر المشتبك الملتف الذى لايجد السالك فيه سبيلا واضحة ينفذ منه ، ويطلق الحرج على الشك أيضا، لأن الشك فى أمر لايكون إلا من ضيق الصدر به وقلة الاتساع لتوجيه الوجهة الصحيحة ، ولذلك اختلف المفسرون هنا فى معنى الحرج ، ففسره بعض بضيق الصدر ، وبعض آخر بالشك ، كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، ويلاحظ أن تفسير الحرج بالشك يجعل الآية فى معنى آية سورة البقرة « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه» أى هذا الكتاب الذى تقرؤه يامحمد على الناس لا شك فى أنه من عند الله تعالى ، وصحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد لأن الإشارة وقعت فيه للتعظيم ، ولذلك قال الطيبى : أحسن ما قيل فى توجيه ذلك أن الله تعالى قال : ذلك الكتاب ذهابا إلى بعد درجته ، وقيل : الإشارة إلى « ألم » بعد ما سبق التكلم به وانقضى ، والمنقضى فى حكم المتباعد ، وهذا فى كل كلام يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك مما لاشك فيه ، ويحسب الحاسب ثم يقول : وذلك كذا وكذا ، وقال تعالى :لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، وقال نبى الله يوسف : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى » ، ولأنه لما وصل من المرسل سبحانه وتعالى إلى المرسل إليه عليه السلام وقع فى حد البعد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً : احتفظ بذلك ، أى تمسك به ـ أو المعنى : ذلك الكتاب الموعود إنزاله بقوله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ، أو الذى جاء الوعد بإنزاله فى الكتب المتقدمة لأن سورة البقرة مدنية كما مر وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بنى إسرائيل وقد كانت بنو إسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما السلام أن الله يرسل محمدا وينزل عليه كتابا ، فقال تعالى : ذلك الكتاب ، أى الذى أخبر

الأنبياء المتقدمون بأن الله سينزله على النبي المبعوث من ولد إسماعيل ، وقيل: إنه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله تعالى : « وإنه فى أم الكتاب لدينا » ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أخبر أمته بذلك ، فغير ممتنع أن يقول تعالى : ذلك الكتاب ، ليعلم أن هـذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ ، والكتاب جاء فى القرآن على وجوه : أحدها الفرض قال تعالى : كتب عليكم القصاص ـ كتب عليكم الصيام ـ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ـ وثانيها الحجة والبرهان قال تعالى : « فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » أى برهانكم ، وثالثها الأجل قال تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » أى أجل ، ورابعها بمعنى : مكاتبة السيد رقيقه قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم » وخامسها القرآن الكريم .. ونفى الشرك والريب عن القرآن مع وجود المرتابين لأنه تعالى ما نفى أن أحدا لا يرتاب فيه وإنما نفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لأنه لوضوحه وسطوع برهانه لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » فإنه لم ينف عنهم الريب بل أرشدهم إلى سبيل إزاحة هـذا الريب وهو أن يجتهدوا فى معارضة سورة من سوره ويبذلوا فيها غاية جهدهم ، حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة ، وقيل : هو خبر بمعنى النهى أى لا ترتابوا فيه كقوله تعالى « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا ، والريب فى الأصل مصدر رابنى الشىء إذا أوجد فيك الريبة وهى قلق النفس واضطرابها ، وسمى به الشك لأنه يقلق ويزيل الطمأنينة ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلا ما لا يريبك ، فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة » ، ومعناه: اترك ما فيه شك إلى ما لا شك فيه ، فإذا ارتابت نفسك فى شىء فاتركه أو اطمأنت إليه فافعله فإن نفس المؤمن تطمئن إلى الصدق وترتاب من الكذب ، وهـذا مخصوص بذوى النفوس الشريفة القدسية الطاهرة .

وجملة الأمر أن قوله تعالى «كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه» فى معنى قوله تعالى «ذلك الكتاب لا ريب فيه» الواردة فى مطلع سورة البقرة، وهذا على تفسير الحرج بالشك، أو قل: إن هذا مرجح لتفسير الحرج بالشك ليتلاءم معنى الآية هنا مع معنى الآية فى سورة البقرة.

والإنذار: التعليم المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة. والذكرى: هى مصدر ذكر الشىء بقلبه أو لسانه، والإسم منه الذكر بالضم والكسر. والكتاب والقرآن: كلاهما يطلق على الكل وعلى البعض، تقول: سمعت فلانا يقرأ القرآن أو يتلو كتاب الله إذا سمعت منه بعضه. ومعنى الآية الثانية من هذه الآيات الثلاث: أن هذه السورة كتاب أنزله الله إليك لتبلغه للناس كافة وتخوفهم سوء عاقبة مخالفة ما فيه من أمر ونهى، وتذكر به المؤمنين، فلا يكن فى صدرك ضيق وغم منه، أو لا يكن فى صدرك شك فى أنه من عند الله سبحانه. نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحرج وضيق الصدر فى القرآن، والنهى لا يكون إلا عن أمر يتصور وقوعه وهو مظنة الوقوع، والأمر كذلك هنا من وجهين: الأول: أن القرآن نفسه عظيم واحتماله عظيم، وقد قال الله سبحانه فيه: «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»، وقال «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»؛ وقد كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه الوحى وهو يتفصد عرقا، وكان يكاد يهيم لشدة وقعه وعظيم تأثيره. وأى قلب يحتمل وصدر يتسع لكلام الله سبحانه ينزل به الروح الأمين إذا لم يتول الله سبحانه شرحه ويتول إعانته على حمله؟ والوجه الثانى: أنه كلف إبلاغه وهداية الناس به وإصلاحهم، والمتصدى لذلك لا بد أن يتوقع أذى ومقاومة وعنتا، وأن يلقى أشد الطعن فى شخصه وفى الكتاب الذى يحمله، وقد حصل ذلك فعلا حيث لاقى من أهله وعشيرته وقومه ولاقى من العرب وغيرهم مالاقى، وقد قال الله سبحانه «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»، وقال له «واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن

عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » وقال « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز أو جاء معه ملك » .
نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ضيق الصدر على رأى ، أو عن الشك على رأى آخر ، وقد جاء مثل هذا النهى عن الشك فى آية أخرى حيث قال الله سبحانه : « فإن كنت فى شك مما أنزل الله إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . وقد جاء النهى على صورة بديعة ، فإن النهى لم يوجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الأمر وإنما وجه إلى الضيق، فنهى الضيق عن أن يكون فى صدره ، وهو أبلغ من توجيه الخطاب إليه وأرفق ، وكأن الحرج لو كان مما يصح نهيه لوجه إليه النهى ، فانته أنت عنه بعدم التعرض له وبعدم التعرض لأسبابه . ونظيره فى اللغة إذا نهيت شخصا عن أن يكون عندك : لا أرينك ها هنا . وقد كان حق الكلام أن يكون هكذا : كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه . لكن النهى جاء قبل قوله : لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، اهتماما بأمر نفى الحرج قبل الإنذار والتذكير ، فإن الإنذار لا يكون على الوجه الأكمل إلا إذا انتفى الحرج وانشرح الصدر وشرح الصدر يشيع فى النفس السرور ، وفى الأعضاء النشاط ، وفى العقل الصفاء ، فيقبل الداعى بعزيمة صادقة وهمة ماضية . وعلى العكس من هذا يفعل ضيق الصدر . وكل عامل فى عمل من الأعمال البدنية أو العقلية فى أشد الحاجة إلى توفير همته وصفاء ذهنه ومضاء عزمه وانشراح صدره . وقد أطلق الله سبحانه الإنذار فقال : لتنذر به ، وقيد الذكرى فقال : وذكرى للمؤمنين ، كما قال فى آية أخرى: هدى للمتقين ؛ والسر فيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جامدة جاهلة ركنت إلى المادة وقيدتها الشهوات والملذات ، جبلت على الإيذاء ، لا تستطيع أن ترى أثر النعمة على الخلق ، ويلذ لها أن ترى النار تحرق البلاد والعباد ، ويؤلمها أن ترى الناس فى هناء ووفاق ، عاقها طبعها عن الشوق إلى مقام القدس واستجلاء الأنوار الإلهية من العوالم القدسية ، وعن التعرض

لنفحات الحق . ونفوس شريفة مشرقة بجوهرها ، حنينها دائماً إلى الكمال ، وهمها الوصول إلى اللذات الروحية والاتصال بعالم القدس ، والتعرض لتجليات الحق ، وأن ترى الناس فى سعادة يتقلبون فى النعمة . وبعثة الأنبياء فى حق القسم الأول إنذار وتخويف وترغيب ، فهم فى حاجة إلى موقظ ومنبه ومخوف ومرغب ، لا يتركون شهواتهم إن تركوها ولا تقاتصهم إن فارقوها إلا فوق نار تأكل الأبدان وتشوى الوجوه وتحرق الجلود ، كلما نضج جلد بدل بجلد ، وإلا فوق سلاسل وأغلال وحيات ومطارق ، وإلا طمعا فى مأكل شهى ومشرب هنى وخمر لذة للشاربين وعسل مصفى ، إلى لذات جسمانية أخرى تضارع لذات الدنيا وتفوقها ، أولئك لا حظ لهم فى إدراك اللذات المعنوية الروحية . وبعثة الأنبياء فى حق القسم الثانى تذكير وتنبيه ، فإن نفوسهم بجواهرها مستعدة للاتصال بالحضرة الإلهية ، والتمتع باللذات الروحية ، منجذبة إلى الكمال ، لكن هذه النفوس لما اتصلت بالأجسام غشيتها غواش من ظلمة الطبيعة ، فعرض لها نوع من الغفلة يكفى لإزالته سماع الدعوة والتذكير ، وإذ ذاك تذكر شأنها وتشتاق إلى ما يناسبها ويليق بها من لذة العلم والمعرفة ولذة التمتع برضوان الله ، وتجد فى ذلك روحها وريحانها وراحتها وأمنها واطمئنانها ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وقد قال الله سبحانه : لتنذر به ، ولم يذكر من ينذرهم ، للإشارة إلى أنه تذكير الناس أجمعين ، وأن رسالته عامة للخلق ، وقد صرح بهذا فى آية أخرى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

أما الآية الثالثة وهى « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » الخ . فالمراد بما أنزل إلى الرسول صلوات الله عليه هو القرآن الكريم ، أما السنة النبوية فهى مفسرة للقرآن وشارحة له ، وهى مثله فى وجوب اتباعها والعمل بها ، قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » ، وقال : « وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والمعنى : قل لهم يا محمد : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، وذروا ما أنتم عليه من الشرك . فنجد فى الآية السابقة

أن الله عز وجل طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الإنذار ، وفي هذه الآية ذكر الإنذار العام الموجه إلى الناس وهو طلب اتباع ما أنزل الله سبحانه، وأتبعه بعد ذلك بالتهديد والتخويف ، وذكر هنا اسم الرب سبحانه عند طلب اتباع ماأنزله الله ، وذلك لأن اسم الرب فيه معنى التربية والتدبير والعناية بمن يربيه ويدبره ، والمربي يعطي من يربيه حظه في كل طور من أطوار حياته ، يلاحظ جسمه فيعطيه الغذاء الصالح اللائق به ، ويمنعه عن كل شيء يؤذيه ، ويعده للتعليم بقدر ماتحتمله حواسه وقواه ، ويلاحظ عند نمو العقل عقله فيعطيه من المعارف ما يليق به ، ويتدرج معه من البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى الصعب ، ويعده للحياة في المجتمع ، ويهيء له بيئة سليمة من النقائص والمعايب ، بعيدة عن الأحقاد ، ويربيه على أن يعيش مع الناس في مودة ووفاق ، يرحم الفقير البائس ، ويعطف على المسكين ، ويغيث المضطر . هكذا يفعل المربي الصالح . والله سبحانه هو المربي الخالق القادر العالم الحكيم وقد جاء الدين القيم وفيه نظام تربية الأجسام ، ونظام تربية النفوس وتربية العقول . أحل للناس الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وحرم الإسراف في كل شيء وطلب القوام ، ووضع لهم قواعد الأخلاق لإصلاح المجتمع ، وفي القرآن الكريم من هذه النظم مالو عمل الناس به لعاشوا في الجنة وهم في الدنيا.

وحرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وبين العقائد الصحيحة في عالم الغيب بما لايصل العقل إليه ، وطلب إلى الناس العلم والمعرفة ، وزهدهم في التقليد والشك . هذا شأن المربي الحكيم العليم ، فكل نظام من نظمه صالح ؛ لأنه هو المربي العليم ، لايجوز أن يتحلل الناس منه ولا أن يتبرموا . ففي الأديان نظام للبدن ، ونظام للروح ، ونظام للمجتمع ، والله غني عن العالمين . وقد دلت الشواهد على أن في العمل بها سعادة ، وفي تركها شقاء. وسيظهر ذلك كلما محصت الفتن الخلق ، وهذبتهم النوائب والشدائد ، ونبهتهم المصائب ، وسيتبين أن ذلك هو الحق ، وأن المصير إليه ، فيه السعادة والسلام، وفيه الشفاء من الأسقام ، وفيه الدواء من أدواء الأنام . والله حسبنا ونعم

الوكيل . طلب الله سبحانه اتباع أوامره ، ورفض اتباع أوامر غيره ، ونهى عن أن يتخذ من غير الله أولياء يأمرون بغير ما أمر وينهون عن غير مانهى ويحللون ماحرم ويحرمون ماحلل ، ويلوون آيات الله إلى غير وجهتها ، يفسرونها طبقا لأهوائهم وأغراضهم ، ويبتدعون فى دين الله ماليس منه ، يزيدون عليه وينقصون أطرافه كلما دعتهم الشهوة وحركتهم الأغراض ، فيتخذون آيات الله هزوا ولعبا ، ويجعلونها بضاعة تجارة إن راجت تمسكوا بها وإن لم ترج أعرضوا عنها . وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق المدبر ، وكان هو الرب المربى عباده طبقا للعلم والحكمة ، كان وحده الحقيق بالولاية ، وكان وحده الأحق بالاتباع ، الله وحده ولى الذين آمنوا : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ، « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض » . والولاية التى تفرد الله سبحانه بها ولاية الخلق والتدبير ، وولاية الرحمة والثواب وكل شأن من شئون الآخرة فهو مالك يوم الدين ، وولاية وضع النظم للإنسان فيما هو غيب ، من حقه وحده أن يحلل ويحرم ، ومن حقه أن يضع نظم الجماعة البشرية . فكل شخص حرم ماأحله الله أو حلل ماحرمه الله فقد جعل نفسه ربا ، وكل شخص اتخذ هذا وليا فقد اتخذه ربا . لله حق التحليل والتحريم ، وللأنبياء التبليغ عن الله ، وللعلماء التبليغ والبيان عن رسل الله ، يبينون الكتاب بالكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح ، ويفهمونه حق فهمه ، يجردون أنفسهم للحق ، ويخلصونها من العصبية والأهواء أما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فمعناها النصرة والتعاون والتعاطف والتراحم لتقوية وحدة المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية ، وأما ولاية أولى الأمر فهى للقيادة والتوجيه وحفظ الأمن ونشر كلمة الإسلام ، وهى ولاية قائمة على تعاليم كتاب الله ودينه القويم . . ومعنى قوله تعالى « قليلا ما تذكرون » أى ما تتذكرون وتعتبرون ، وهذا شأن الإنسان أن ينسى الله كلما كان فى نعمة ، وأن لا يعرفه إلا فى الشدائد والمحن والخطوب ..

٤ — وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ

٥ — فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ .

٦ — فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ .

٧ — فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ .

٨ — وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

٩ — وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ .

ست آيات كريمة فيها إنذار للمشركين والكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأى إنذار هذا الإنذار ؛ كثير من الأمم والشعوب القديمة قد أهلكها الله ، فجاءها عذابه ليلا أو نهارا ، وفاجأها سخط الله وغضبه دون سابق إنذار ، فرفعوا أكفهم إلى الله حين الهلاك يطلبون منه النجاة ، ويعترفون بظلمهم واستحقاقهم لهذا البوار ويوم القيامة سيسأل الله الرسل وأممهم عما صنع هؤلاء وهؤلاء ، وسوف ينبئهم الله بالحقيقة واضحة ليس فيها خفاء ، وسوف تقام الموازين القسط يوم القيامة للحساب ، فمن ثقلت موازينه فهم المفلحون ، ومن خفت موازينه فهم الخاسرون بظلمهم وعنادهم وكفرهم بالرسل والشرائع ورسالات السماء ، فليحذر مشركو مكة خاصة والمشركون والكافرون عامة مثل هذا المصير ، ومثل هذا العذاب والغضب الشديد ، إن لم يؤمنوا برسالة محمد الخالدة ، وإن لم يعتقدوها ويعملوا بما فيها .. وليعتبروا بمصير الأمم البائدة ، والشعوب الهالكة ، والمدن الماضية ،

والقرى التى طمسها الله عز وجل بعذابه .. هـذا والقرية : مجتمع النـاس . ولا تسمى قرية إلا وفيها مساكن لأهلها وسكان منهم ، والمراد بالقرية المدينة أو الأمة ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والايقاع به على غفلة . والقائلون : هم الذين يستريحون فى النهار وقت القائلة وإن لم يناموا . والبأس : الشـدة والقوة والعذاب الشديد . والدعوى : من معانيها القول . لما أمر الله سبحانه باتباع أوامره ، حذرهم فى هذه الآية والآية التى بعدها عاقبة المخالفة وجزاء المخالفة . والعصيان منه ما هو دنيوى ، ومنه ما هو فى الدار الآخرة وفى هذه الآية تحذير من العقاب الدنيوى ، وهو التحذير من النقمة تحل بالقرى فتهلك ، ومن البأس والعذاب يحل بأهلها فيبيدون . يقول الله سبحانه إنه كثيرا ما أهلك القرى وأنزل عليهم نقمته وعذابه بسبب العصيان ومخالفة النظام الإلهى ، فبعض القرى جاءها العذاب ليلا ، وبعض القرى حل بها العذاب نهارا وقت الراحة ، فما كان دعواهم وقولهم إذ جاءتهم أسباب الهلاك وعاينوها وأيقنوا بوقوعه إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ، معترفين بالذنب مقرين باستحقاق العقوبة . ولا يظلم ربك أحدا . وعقوبة الأفراد على المعصية لا تطرد فى الدنيا وتطرد فى الآخرة ، وعقوبة الأمم على المعاصى تطرد فى الدنيا والآخرة ، يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت ولم تغير ضرت العامة » . وعصيان الأمم على ضربين : عصيانها بمخالفة أوامر الله سبحانه وشرائعه ، وعصيانها بمخالفة السنن الكونية الشاملة للأنواع ، فما من نوع إلا أوتى السلاح الذى به يحافظ على نفسه ، وأوتى بالغريزة والفطرة وقوة المحافظة على الفرد والنوع ، وقد أوتى الإنسان قوة عقلية وقوة مادية ، فإذا أهمل ما توجبه الغريزة فقد ضل ، وإذا أهمل مايوجبه الدين فقد ضل . وهلاك الأمم على ضربين : هلاك مادى وفناء ظاهر ، وهلاك معنوى وفناء أدبى ، ولكل أمة أجل ، والآجال والمواقيت تختلف باختلاف أحوال الأمم فى القوة والضعف والقلة والكثرة . فمن الأمم أمم بادت بالغرق ، وأمم بادت بالصواعق ، وأمم بادت بالزلازل والبراكين ، ومن الأمم أمم

ذلت بعد العز ، وافتقرت بعد الغنى ، وضعفت بعد القوة ، وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وخادمة بعد أن كانت مخدومة ، وجاهلة بعد أن كانت عالمة ، ورعية بعد أن كانت راعية . وإذا فسقت أمة عن أمر ربها ، وضاع منها الحياء من الله ومن الناس ، واسترسلت فى الشهوات ، وغرقت فى اللذات؛ وفشا فيها الظلم ، ولم يقف القوى عند حدود الله ، واغتال أموال الضعفاء والفقراء ، واختل النظام وزال الأمن ، وفقدت الرحمة على البائس والمسكين واليتيم والمحروم ، وانحلت قواها وفسد الأمر فيها ، وتمزقت وحدتها — حق عليها الهلاك ، وجاءها أمر الله وعذابه ليلا أو نهاراً ، أو هلكت هلاكا معنوياً ففقدت استقلالها وأضاعت كيانها . والتاريخ شاهد ، والحوادث ناطقة والقرآن الصادق يقص الخبر ويسوى العبر . وللأمم علاج ولها طبيب ، أما طبيبها فهو الله سبحانه ، وأما علاجها فهو القرآن ، فما عليها إلا أن ترجع إلى هديه ، وتثوب إلى رشده ، وتحافظ على تعاليمه ، وتتدبر معانيه وأغراضه وتعمل بها ، وتقلع عن الغى والفساد ، وعن الظلم والطغيان ، وعن حياة الشهوات واللذات ، وتستمتع بحياة روحية ، وتتذوق لذة العلم والمعرفة والهدى والتقوى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » . وقد جرينا فى تفسير الآية على أن الإهلاك على ضربين : منه بأس بالليل ، ومنه بأس بالنهار ، وعلى ذلك فالبأس هو الإهلاك ، والإهلاك هو البأس . أجمل ثم فصل ، ففى ذكر الإهلاك دلالة على البأس ، وفى ذكر مجىء البأس الدلالة على الإهلاك .

قال أبو جعفر : وإذا كان ذلك كذلك كان سواء عند العرب ، بدىء بالإهلاك ثم عطف عليه البأس ، أو بدىء بالبأس ثم عطف عليه الإهلاك ، كقولهم : زرتنى فأكرمتنى ، إذا كانت الزيارة هى الإكرام سواء عندهم تقديم الزيارة وتأخير الكرامة ، أو تقديم الكرامة وتأخير الزيارة ، فتقول : أكرمتنى فزرتنى أو زرتنى فأكرمتنى ، وحرف (أو) هنا للتفصيل ؛ فإن قيل : أقالوا إنا كنا ظالمين قبل الهلاك فيكون قولهم قبل مجىء البأس ، أو بعد الهلاك

فتلك حالة قد هلكوا فيها ؟ قيل ليس كل الأمم كان هلاكها فى لحظة ليس بين أوله وآخره مهل ، وقد يظهر سبب الهلاك ويتيقن به قبل حصوله ، ويكون هناك وقت يكون فيه القول « إنا كنا ظالمين » .

ويوم القيامة يسأل الله الأمم ماذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل من عند الله ؛ هل عملوا بما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه ؟ ويسأل الله الرسل ؛ هل بلغوا أو قصروا ؟ وجاء فى سؤال الرسل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » ، « يوم يجمع الله الرسول فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ، « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » . يسأل الله سبحانه هؤلاء وهؤلاء ثم يقص عليهم عن علم تام كل ما وقع من الفريقين ، فإنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وما كان غائبا عنهم فى وقت من الأوقات ولا فى حال من الأحوال وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . هذا السؤال هو الحساب ، ثم يتلوه الجزاء ، وليس هو سؤال استرشاد واستخبار ، بل هو سؤال تقرير وإعلام وإنكار وتوبيخ فى حق الأمم . أما فى حق الرسل فليكون جوابهم شهادة على أممهم : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . وفى الحديث الشريف « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فأعدوا للمسائل جوابا . قيل وما الجواب ؟ قال : أعمال البر » . وعنه صلى الله عليه وسلم « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . كل الناس مسؤول : الإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل

عن بيت زوجها » . تضمنت هذه الآية سؤال الأمم ، غير أنه جاء فى آيات أخرى أنه لا يسأل أحد ، مثل قوله تعالى : فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » ، وجاء فى آيات أنه لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ، ومنه قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » . وقيل فى الجواب عن ذلك : إن القيامة مواقف متعددة ، فمواقف فيها السؤال ، ومواقف لا سؤال فيها ، بل يصرف كل أحد إلى المكان الذى يستحقه ، « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » . وقيل إن المنفى هو سؤال الاسترشاد لأن الله غنى عن أن يعرف أحوال الناس من الناس ؛ والمثبت هو السؤال المؤلم المخزى ، كما يقول الرجل لمن صنع معروفا ثم أنكره : ألم أحسن إليك ، ألم أصلك ، ألم أدفع المكروه عنك ؟ وفى يوم القيامة يجزى الناس على أعمالهم ، والجزاء على حسب الأعمال ، وهى تتفاوت ، وإنما تضبط بالوزن ، والله سبحانه يعطى كل واحد جزاء عمله بالعدل والقسط « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » . « ولا يظلم ربك أحدا » « وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . والأصل فى الوزن أنه عمل يراد به تعرف مقدار الشىء بآلة هى الميزان ، لكنه يطلق على العدل أيضا ، ومنه قوله تعالى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » ، «وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » . وللمسلمين رأيان فى الوزن : الأول : أنه العدل التام فى تقدير ما به يكون الجزاء . وقد نقل ذلك عن مجاهد والأعمش والضحاك من مفسرى السلف ، وعليه جمهور المعتزلة . قال الراغب : والوزن يومئذ الحق : إشارة إلى العدل فى محاسبة الناس ، كما قال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » والتجوز بالوزن والميزان فى كلام العرب كثير . والرأى الثانى : أن هناك ميزانا حقيقياً ووزنا حقيقيا ، وعليه أكثر العلماء ، وهم بعد مختلفون فى أن الأعمال هى التى تودع فى الميزان أو أن صحائف الأعمال هى التى تودع فى الميزان ، وفى أن هناك موازين متعددة لكل واحد ميزان ولكل عمل ميزان . أو أن هناك ميزانا واحداً للجميع .

ومعنى الآية على كل حال : والوزن فى ذلك اليوم الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم هو الحق الذى تحقق به الأمور وتعرف به حقيقة كل واحد وحقيقة ما يستحقه من الثواب والعقاب . فمن ثقلت موازينه يعنى رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والفائزون بالنعيم فى دار الكرامة . ومن خفت موازينه ، أى شالت كفة ميزانه ولم ترجح بسبب كفره وعصيانه وكثرة سيئاته ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم وأضاعوها وحرموها ماكان ينبغى أن يكون لها من الفوز والنعيم ، وهم لم يخسروها إلا بسبب ظلمهم وكفرهم بآيات الله ، فقوله تعالى : يظلمون ، هنا ، معناه يكفرون . وفى آية أخرى « إن الشرك لظلم عظيم » . وقد أشارت الآية إلى فريقين : فريق المؤمنين الناجين ، وفريق الكافرين الخاسرين . وهناك فريق آخر وهم أهل الأعراف ، وسيأتى ذكرهم فى آيات أخرى . ولا شك فى تفاوت أفراد كل فريق ، وأن بعض الأفراد أشد رجحانا من الآخر فى فريق المؤمنين . وبعض الأفراد أشد خسرانا فى فريق الخاسرين .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الست الكريمة ... « وكم من قرية أهلكناها » أى أهلكنا أهلها ودمرناهم وأنزلنا عليهم العذاب ، وكم خبرية وهى مفعول لأهلكنا ، وهى للتكثير « فجاءها » أى أهلها « بأسنا » أى عذابنا ، ومجىء البأس قبل الإهلاك فتقدر الإرادة أى: أردنا إهلاكها ، وقيل: الإهلاك الخذلان ، وعلى هذا فلاحاجة إلى تقدير . « بياتا » أى وقت السكون فى البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام « أو هم قائلون » أى نائمون وقت القائلة وهى نصف النهار أو مستريحون من غير نوم كما أهلكنا قوم شعيب عليه السلام ، أى مرة جاءها ليلا ومرة نهارا ، وإنما خص هذين الوقتين لأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجىء العذاب فيهما أفظع ، وفى هذا وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل : لا يغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة « فما كان دعواهم » أى قولهم « إذ جاءهم بأسنا »

أى عذابنا « إلا أن قالوا » أى إلا قولهم « إنا كنا ظالمين » أى فيما كنا عليه حيث لم نتبع ما أنزل إلينا من ربنا وذلك حين لا ينفعهم الاعتراف « فلنسألن الذين أرسل إليهم » أى المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم الله تعالى عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل « ولنسألن المرسلين » أى عما أجيبوا به كما قال تعالى « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » . وقيل : نسأل المرسلين عن الإبلاغ ، والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفار وتقريعهم ، والمنفى فى قوله تعالى « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » سؤال الاستعلام الأول فى موقف الحساب ، وهذا عند حصولهم على العقوبة « فلنقصن عليهم » أى الرسل والمرسل إليهم « بعلم » أى لنخبرنهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهراً ، وبما قالوه سراً وعلانية « وما كنا غائبين » عنهم فيخفى علينا شىء من أحوالهم وأقوالهم « والوزن » الوزن لصحائف الأعمال إظهارا للعدل وقطعا للمعذرة كما يسأل الله عز وجل البشر عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم ، ويروى أن رجلا يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[١] ، وقيل : توزن الأعمال ، روى عن ابن عباس : فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان ، وقيل : توزن الأشخاص لما روى عنه صلى الله عليه وسلم : يؤتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة « يومئذ » أى يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة « الحق » أى العدل السوى « فمن ثقلت موازينه » أى رجحت على ما يعهد فى الدنيا بصحائف الأعمال . وعن الحسن : وحق الميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق الميزان توضع فيه السيئات أن يخف ، والميزان واحد ، والعرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد ، وقيل : إنه ينصب لكل عبد ميزان ، وقيل جمع الميزان باختلاف الموزونات « فأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالنجاة والثواب

---

(١) البطاقة : ورقة صغيرة تجعل فى طى الثوب يكتب فيها ثمنه .

« ومن خفت » أى طاشت « موازينه » أى السيئات أى بسببها « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » أى لأنهم جروها إلى النار « بما كانوا بآياتنا يظلمون » أى يجحدون.

١٠ — وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ.

١١ — وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ.

١٢ — قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ.

١٣ — قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ.

١٤ — قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

١٥ — قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ.

١٦ — قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ.

١٧ — ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.

١٨ — قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ.

هذه الآيات التسع الكريمة فيها تعداد نعم الله على البشر، وهذه النعم جديرة أن تقابل بالشكر لا بالكفر، وبالطاعة لا بالعصيان، وأى نعمة أجل

من نعمة تمكين الله للإنسان فى الأرض ، وتذليل الحياة له ، وتسخير الوجود لعقله ، حتى استطاع بهذا العقل الذى أنعم الله به عليه أن يطير فى السماء وأن يغوص فى لجة الماء ، وأن تصعد الصواريخ التى صنعها إلى أجواز الفضاء ؟ وأى نعمة كذلك أجل من جعل كل شىء فى الأرض من أسباب معاش الإنسان فيها ؟ وأى نعمة كذلك أعظم من نعمة الخلق والتكوين ؟ ، ثم أفلا يذكر البشر كيف أعز الله الإنسان منذ الأزل . وكيف أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى فطرده الله من جنته ، وأبعده عن رحمته ، وأنظره إلى يوم القيامة ، فهو يترصد للناس يغويهم ويضلهم ويوسوس لهم ، ويزين لهم الشر والباطل والإثم والعصيان . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . « ولقد مكناكم » أى يابنى آدم « فى الأرض » أى من سكنها وزرعها والتصرف فيها « وجعلنا لكم فيها معايش » جمع معيشة أى أسبابا تعيشون بها أيام حياتكم من أنواع التجارات والصنائع والمآكل والمشارب ، وذلك بفضل الله تعالى وإنعامه على عبيده ، وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ، ثم بين تعالى أنه مع هذه الأفضال على عبيده وإنعامه عليهم لايقومون بشكرها كما ينبغى فقال تعالى « قليلا ما تشكرون » أى على ما صنعت لكم وأنعمت به عليكم ، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعمة الله فيشكره عليها فلا يخلو فى بعض الأوقات من الشكر على النعم ، وحقيقة الشكر تصور النعمة وإظهارها ، ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ، ولقد ذكر الله جحود إبليس للنعمة ، وشكر آدم لها . وبدأ بتسجيل أكبر نعمة لله على الناس وهى نعمة الخلق « ولقد خلقناكم » أى خلقنا الناس أو خلقنا أباكم آدم « ثم صورناكم » أى صورنا الناس وهم فى الأرحام ، أو صورنا أباكم آدم ، والمعنى: خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه ، فنزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم . أو خلقناكم فى أصلاب الرجال ثم صورناكم فى أرحام النساء « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » على أن الخلق والتصوير لآدم فيكون الترتيب واضحا ، أما إذا كان الخلق والتصوير لبنى آدم فتكون « ثم » بمعنى الواو ، أو للترتيب فى مفاصل الأسلوب لا فى الواقع « فسجدوا » أى الملائكة كلهم لآدم

« إلا إبليس » هو أبو الجن ، وكان بين الملائكة « لم يكن من الساجدين » أى عن سجد «قال» الله تعالى لإبليس « ما منعك أن لا تسجد » اى أن تسجد ، فكلمة «لا» زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى «لا أقسم» أى اقسم ، وقوله تعالى « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » أى يرجعون ؛ نعم إن حمل « مامنعك » على معنى ماحملك لم تكن زائدة « إذ أمرتك » أى حين أمرى إياك بالسجود لآدم تعظيما وتوقيرا « قال » إبليس مجيبا له تعالى : « أنا خير منه » وهذا جواب من حيث المعنى ، استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثل آدم كأن قال : المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر به ، وإبليس هو الذى سن التكبر ، وقال بالحسن والقبح العقليين أولا « خلقتنى من نار » أى وهى مشرقة مضيئة عالية غالبة «وخلقته من طين» أى وهو كدر مظلم سافل مغلوب ، وقد ظن إبليس أن الفضل كله هو باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى » أى بغير واسطة ، وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله « ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ، وقال محمد بن جرير : « ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن المفضل ما جعل الله له الفضل ، وقد فضل الله الطين على النار بوجوه : منها أن من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر والتواضع والتضرع فأورثته الاجتباء والمنزلة والهداية ، ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ، فأورثته اللعنة والشقاوة ، ولأن الطين سبب جميع الأشياء والنار سبب تفرقها ، ولأن التراب سبب الحياة لأن حياة الأشجار والنبات لا تكون إلا مع الطين والنار سبب الهلاك ، وسؤال الله تعالى عن المانع من السجود وهو عالم بما منعه على سبيل التوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه أصل آدم عليه الصلاة والسلام « قال » الله تعالى لإبليس « اهبط منها » أى من الجنة ، وقيل : من السماء إلى الأرض ، والهبوط الإنزال

والانحدار من فوق على سبيل القهقرى والهوان والاستخفاف « فما يكون » أى فما يصح « لك أن تتكبر فيها » عن أمرى، لأن الجنة أو السماء مكان الخاشع أو المطيع لأمر الله تعالى . وفيه تنبيه على أن التكبر والحقد مما لا يليق بأهل الجنة والسماء ، وأنه تعالى إنما طرد إبليس لتكبره وحقده ، لا لمجرد المعصية ، قال صلى الله عليه وسلم - كما رواه البيهقى : من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ، وعن عمر رضى الله عنه : من تواضع رفع الله حكمته ومن تكبر وعدا طوره هضمه الله إلى الأرض « فاخرج » منها « إنك من الصاغرين » أى الكفرة الأذلاء ، والصغار الذل والمهانة ، قال الزجاج : استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله بالصغار والذلة ، وقيل : كان له ملك الأرض فأخرجه الله منه « قال » إبليس عند ذلك « انظرنى » أى أخرنى ولا تمتنى ولا تعجل عقوبتى « إلى يوم يبعثون » أى الناس وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة « قال إنك من المنظرين » أى لا إلى ذلك الوقت بل إلى الوقت المعلوم كما بينه تعالى فى سورة الحجر بقوله تعالى « إنك لمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وذلك هو النفخة الأولى التى يموت فيها الخلق ، وقد أجيب إبليس إلى الإنظار لما فى ذلك من ابتلاء العباد وما فى مخالفته من عظيم الثواب، وحكمة ما خلق الله تعالى من صنوف الزخارف وأنواع اللذات واللهو وما ركب فى النفس من الشهوات إنما هى ليمتحن الله عز وجل بها عباده «قال» أى إبليس «فبما أغويتنى» أى فبإغوائك لى والباء للقسم . أى أقسم بإغوائك « لأقعدن لهم » أى لبنى آدم « صراطك المستقيم » أى على الطريق الموصل إليك « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » أى من جميع الجهات الاربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة ربه .

وروى عن ابن عباس أيضا : من بين أيديهم أى من قبل الآخرة فيخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم من قبل الدنيا فيزينها لهم، وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم أى فيبطؤهم عنها ، وعن شمائلهم أى من قبل

سيئاتهم ، فيزين لهم المعاصى ويدعوهم إليها ، وعن بعض الصالحين : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربع مراصد : من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، أما من بين يدى فيقول: لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » ، وأما من خلفى فيخوفنى الضيقة على مخلفى فأقرأ « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، وأما من قبل يمينى فيأتينى من قبل الثناء فأقرأ « والعاقبة للمتقين » ، وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » .. « ولا تجد أكثرهم شاكرين » أى مطيعين، وقال ذلك ظنا لقوله تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه » ، ولتعدد أسباب الشر من الشيطان ومبدأ الخير وداعيه واحد وهو الملك الملهم والنفس والهوى ، وقيل: سمع ذلك من الملائكة « قال» الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه بسبب عصيانه ومخالفته « اخرج منها » أى الجنة أو السماء فإنه لا ينبغى أن تسكن فيها « مذموما » أى محقورا ممقوتا « مدحورا » أى مبعودا مطرودا عن الرحمة « لمن تبعك منهم » أى من الناس « لأملأن جهنم منكم أجمعين » أى لأملأن جهنم منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب .

وهذه هى قصة الكفر والعصيان والتكبر والحقد ، قصة إبليس الذى كان من الملائكة فحقد على آدم حين أمره الله عز وجل بالسجود لآدم ، وعصى أمر ربه ، فطرده الله من باب رحمته ، وهى قصة كل كفار أثيم ، ومتكبر عنيد ، وحقود لئيم ، وشيطان مريب ، له العذاب والطرد من رحمة الله .

ومهما قيل فى الشيطان وإبليس من آراء ، فإننا لا يمكن أن نتجاوز حدود ماذكر الله ، نسلم بوجود الشيطان ، وبأنه سبب الشر فى الدنيا ، وبأنه سبب الشر فى الدنيا ، وبأنه الموسوس للناس ، والذى يوقعهم فى السيئات والمعاصى ، وأنه حاقد على بنى آدم ، وأنه مقيم ما أقامت الدنيا ، وأن له العذاب الشديد فى الآخرة .

١٩ — وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٢٠ — فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ .

٢١ — وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ .

٢٢ — فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

٢٣ — قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

٢٤ — قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

٢٥ — قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

وهذه سبع آيات أخرى ، فيها قصة آدم عليه السلام ، قصة الشكر لله وعبادته والاعتراف بألوهيته ، وقصة طاعة الإله العظيم والعبودية له ، وفيها قصة إغراء إبليس لآدم ، حقدا عليه ، ووقوع آدم فى المعصية نسيانا ، وتبصرة الله له وتوبة الله عليه ، وحياة آدم فى الأرض وعمرانه لها هو وذريته . وهى

قصة طويلة لا يمكن أن يحيط بأطرافها قلم .. قال الله تعالى : فى هذه الآيات الكريمة البليغة :

« ويا آدم » أى وقلنا ياآدم « اسكن » . هذه القصة معطوفة على قوله تعالى « قلنا للملائكة » ، فهى معطوفة على قصة إبليس السابقة « أنت » تأكيد للضمير فى اسكن « وزوجك » أى حواء « الجنة » وذلك بعد أن هبط إبليس وأخرجه وطرده منها « فكلا من حيث شئتما » من ثمار الجنة أى من أى مكان شئتما ، وفى سورة البقرة قال تعالى : « وكلا » بالواو ؛ وقال هنا « فكلا » بالفاء لأن الواو تفيد الجمع المطلق ، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب ، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ؛ ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع - على ماذكره الإمام الرازى فى تفسيره « ولا تقربا هذه الشجرة » أى بالأكل منها مشيرا إلى شجرة بعينها أو نوعها « فتكونا من الظالمين » أى بالأكل منها أى فتصيرا بذلك من الذين ظلموا أنفسهم « فوسوس لهما الشيطان » أى إبليس بما مكنه الله تعالى منه من أنه يجرى من الإنسان مجرى الدم ، ويلقى له فى سره ما يميل به قلبه إلى ما يريد ، وهو أحقر وأقل من أن يكون له فعل ؛ وإنما كل شىء بيده سبحانه وتعالى ، وهو الذى جعله آلة لمراده منه ومنهم ، فإن من يهدى الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ثم بين الله عزوجل علة الوسوسة لقوله تعالى « ليبدى » أى ليظهر « لهما ما وورى » أى ستر وغطى ، أى ليظهر « عنهما من سوآتهما » أى عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا يراها أحدهما من الآخر « وقال » أى إبليس لآدم وحواء « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة » أى عن الأكل منها « إلا أن » أى كراهة أن « تكونا ملكين » أى فى عدم الشهوة وفى القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم « أو تكونا من الخالدين » أى الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا كما فى آية أخرى « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » « وقاسمهما » أى أقسم لهما بالله على ذلك ، وجاء على صيغة المفاعلة للمبالغة ، وقيل: أقسما له

بالقبول ، وقيل : أقسما عليه بالله إنه لهما لمن الناصحين فأقسم لهما « إنى لكما لمن الناصحين » فجعل ذلك مقاسمة ، وقال قتادة : حلف لهما بالله حين خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف وأن الأغلب أن كل حلاف كاذب ، وأنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه ، ولا يظن ذلك إلا وهو معتاد للكذب ، وقال بعض العلماء : من خادعنا بالله خدعنا له ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، وكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له . وإبليس لعنه الله تعالى أول من حلف بالله تعالى كاذباً فاغتر به « فدلاهما بغرور » أى خدعهما ، يقال: ما زال يدلى لفلان بالغرور يعنى ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل ، وقيل : حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية ، والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش « فلما ذاقا الشجرة » أى أكلا من ثمرها ، وفى ذلك دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصدا إلى معرفة طعمه ، إذ الذوق يدل على الأكل اليسير ، وقيل : ذوق الشجرة كناية عن مجامعة آدم لحواء « بدت » أى ظهرت « لهما سوآتهما » أى عوراتهما ، وتجافت عنهما لباسهما حين أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من سوأة صاحبه بأن رأى عورة نفسه وعورة صاحبه ، والعورة سوأة لأن انكشافها يسوء صاحبها ، قال وهب : كان لباسهما من النور يحول بينهما وبين النظر ، فلما وقعا فى الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحيا « وطفقا » أى فأقبلا وجعلا « يخصفان » أى يلصقان « عليهما من ورق الجنة » أى من ورق التين ، قال البغوى : حتى صار كهيئة الثوب ، قال الزجاج : يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما ، وروى عن أبى ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان آدم رجلا طويلا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته ـ وكان لا يراها ـ فانطلق هاربا فى الجنة ، فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره ، فقال لها : أرسليني فقالت: لست بمرسلتك ، فناداه الله عز وجل يا آدم أمنى تفر؟

فقال : لا يارب ولكنى استحييتك « وناداهما » أى خاطبهما « ربهما » بقوله « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » أى عن الأكل من ثمرها « وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » أى بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود تعنتا وحسدا ، وفى ذلك عتاب على مخالفة النهى ، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ، ودليل على أن مطلق النهى للتحريم . وفى رواية لابن عباس أن الله عز وجل قال : فإنى أعطيت حواء ألا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا » أى ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك ، فإن لم تتب علينا نستمر فى عصياننا « وإن لم تغفر لنا » أى تمحو ما عملناه « وترحمنا » أى فتعلى درجاتنا « لنكونن من الخاسرين » فى الأرض فأعربت الآية أنهما فزعا إلى الإنصاف بالاعتراف بذنبهما ، وإن كان إنما هو خلاف الأولى لأنه بطريق النسيان كما فى سورة طه ، قال قتادة قال آدم : أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك ؟ قال : أدخلك الجنة ، وأما إبليس فلم يسأل التوبة وسأل (النظرة) فأعطى كل واحد منهما ما سأله ، وقال الضحاك : استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ، ورد بأن درجة الأنبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى فى أعلى الدرجات ولكن يؤاخذون بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل ؛ فهم بسبب ذلك خائفون وجلون ، وهى ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ، وبالنسبة إلى كمال طاعتهم . لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ، وآثام كآثام غيرهم ، فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم ، وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى ، وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله تعالى ذنوب بالنسبة إلى أحوالهم ، فقالا ذلك على عادة المقربين فى استعظام الصغير من السيئات وتحقير العظيم من الحسنات ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة ، ومن جملة ذلك أن آدم إنما أكل من الشجرة قبل النبوة « قال » الله تعالى « اهبطوا » أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ، ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة طه : اهبطا بضمير التثنية ،

أو أن الأمر لهما وحدهما والجمع هنا على سبيل التعظيم « بعضكم » أى بعض الذرية « لبعض عدو » أى من ظلم بعضهم بعضا ، وقيل : يعود الضمير لآدم وحواء وإبليس ، فالعداوة ثابتة بين آدم وإبليس وذرية كل واحد من آدم وإبليس « ولكم فى الأرض » جنسها « مستقر » أى مواضع استقرار « و » لكم فيها « متاع » أى تمتع « إلى حين » أى إلى انقضاء آجالكم ، وقيل : إلى انقطاع الدنيا ، وعن ثابت البنانى رحمه الله تعالى لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى الذى أصابنى منك. فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وتراً ، وحنطته وكفنته فى الثياب ، وحفروا له ولحدوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده « قال » الله تعالى « فيها » أى الأرض « تحيون » أى تعيشون أيام حياتكم « وفيها تموتون » أى وفيها وفاتكم وموضع قبوركم « ومنها تخرجون » أى يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء .

وقد وردت قصة آدم فى جميع الكتب السماوية ، وجاء فى العهد القديم فى سفر التكوين ، الإصحاح الثانى ما نصه : « جبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفسا حية ، وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا ، ووضع هناك آدم ، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر ، وكان نهر يخرج من عدن ليسق الجنة ، وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوحى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت ، وقال الرب الإله ليس جيد أن يكون آدم وحده ، فأضع له معينا نظيره » ثم يتحدث بعد ذلك عن الأسماء التى علمها الله لآدم فيقول : « وجبل الرب من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء

وجميع حيوانات البرية ، وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره ، ثم تكلم عن خلق حواء ؛ وفى الإصحاح الثالث يتكلم العهد عن الحية ووسوستها لحواء ، وأكل حواء وآدم من الشجرة ، وهنا كما يقول العهد القديم : « انفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر » ؛ ثم يتكلم عن عتاب الله لآدم وتوبته وإخراجه هو وحواء من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها ؛ وفى الإصحاح الرابع يتكلم العهد القديم عن ميلاد قابيل وهابيل وما كان بينهما ، وفى الإصحاح الخامس جاء ذكر شيث ابن آدم وميلاده وآدم فى الثلاثين والمائة من عمره ، ويقول : إن أيام آدم كانت بعد ما ولد شيثا ثمانمائة سنة ، فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسعمائة وثلاثين سنة .

وقصة آدم جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى مواضع عدة ، منها هذا الموضع ، وفى أول سورة البقرة ، وفى سورة طه ، وقد أفاض الشيخ عبد الوهاب النجار فى قصة آدم فى كتابه « قصص الأنبياء » . وليس هذا موضع الإطناب فى ذكر القصة وسردها ، فلنكتف بذلك فى هذا المقام ..

٢٦ — يَٰبَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

٢٧ — يَٰبَنِى ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

هاتان الآيتان الكريمتان الخطاب فيهما موجه إلى بنى آدم عامة لإظهار

فضل الله عز وجل على البشر كافة ، ولتوجيههم إلى خير الدنيا والآخرة ، وإلى عصيان الشيطان وعدم الخضوع لإغرائه ووسوسته ... والآية الأولى يمتن الله عز وجل فيها على بنى آدم بما هداهم إلى اتخاذ الثياب لستر العورة وللزينة ، والآية الثانية ينهى فيها الله عز وجل بنى آدم عن الوقوع فى فتنة الشيطان وإغرائه ، وعن الخضوع لوسوسته وتزيينه ، وكنى ما صنعه مع أبيهم آدم ، من إخراجه من الجنة هو وحواء ، ومن كشف ثيابهما وعورتهما ، ومن وسوسته لهما بالمعصية .

قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا » أى ألهمناكم باتخاذه أو خلقناه لكم بإرادتنا ، وبأسباب نازلة من مطر ونحوه ، ونظيره قوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام » وقوله تعالى « وأنزلنا الحديد » ، وقيل : كل بركات الأرض يجوز أن تنسب إلى السماء « يوارى » أى يستر « سوآتكم » أى عوراتكم . روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لانطوف فى ثياب عصينا الله تعالى فيها ، وكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطوفون بالليل عراة قال قتادة : كانت المرأة تطوف وتضع يدها على عورتها ، فنزلت ، قال البيضاوى : ولعله سبحانه وتعالى ذكر قصة آدم تقدمة لذلك ، حتى نعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم «وريشا » أى ولباسا تتجملون به ، والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان ، واستعير لأنه لباسه وزينته ، والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم . كما قال تعالى « لتركبوها وزينة » وقال تعالى « ولكم فيها جمال » وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ، وقال ابن عباس : وريشا ـ أى مالا ، يقال : تريش الرجل: تموّل ، ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسى وقسمه إلى ساتر ومزين أتبعه اللباس المعنوى فقال « ولباس التقوى » قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله تعالى فى تعظيم المعنوى بقوله « ذلك خير » أى ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب لكونه أعم اللباسين ، لأن نزعه يكشف العورة الحسية والمعنوية ،

فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو غير متق كانت له سوآت ، ولو كان متقيا وليس عليه إلا قطعة من الثياب توارى عورته كان فى غاية الجمال والكمال، وقال قتادة : لباس التقوى هو الإيمان ، وقال الحسن : هو الحياء لأنه يبعث على التقوى ، وقال عثمان بن عفان : هو السمت الحسن ، وقال ابن الزبير : هو خشية الله تعالى والعمل الصالح يشمل هذه الأمور كلها « ذلك » أى إنزال اللباس « من آيات الله » أى الدالة على فضله ورحمته « لعلهم يذكرون » فيعرفون نعمة الله فيتعظون ويتورعون عن القبائح ، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهوره ، والسوأة وخصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، إظهارا وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى « يابنى آدم » أى الذى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى ثم أسكنته جنتى وأنزلته منها إلى دار محنتى « لا يفتننكم » أى يضلنكم « الشيطان » أى البعيد المحترق بالذنوب، أى لا تتبعوه فتفتنوا فيمنعكم بذلك من دخول الجنة ويدخلكم النار « كما أخرج أبويكم من الجنة » بغتة بعد أن كانا سكناها وتمكنا فيها وتوطناها ، وقد علمتم أن الدفع أسهل من الرفع وقوله تعالى « ينزع عنهما لباسهما » نسب نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك ، لأن نزع لباسهما سبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه ، واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما ، قال وهب : كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر ، وقال مجاهد : كان لباسهما التقوى ، وقيل : كان لباسهما من ثياب الجنة ، « ليريهما سوآتهما » أى عوراتهما « إنه » أى الشيطان « يراكم هو وقبيله » أى جنوده ، وقال ابن عباس : قبيله ولده ، وقال ابن زيد : نسله ، والقبيل جمع قبيلة وهى الجماعة المجتمعة التى يقابل بعضها بعضا « من حيث لا ترونهم » للطافة أجسامهم أو عدم ألوانهم ، وعن ابن عباس أنه قال : إن الله تعالى جعلهم يجرون من ابن آدم مجرى الدم ، وجعل مسكنهم صدور بنى آدم ، وبنو آدم لا يرونهم ، هذا ومنع الرؤية إذا كانوا على خلقتهم الأصلية وإلا فقد يراهم الرائى عند تشكلهم بصورة حيوان أو طير أو غير ذلك، فان للجن قوة التشكل،

وهذا أمر شائع ذائع ، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين فى بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض «إنا جعلنا الشياطين أولياء» أى أعوانا وقرناء « للذين لا يؤمنون» لما بينهم من التناسب فى الطباع .

٢٨ — وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٢٩ — قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

٣٠ — فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ .

ثلاث آيات كريمة فيها بيان لشريعة الله إلى خلقه ، وأمره إلى عباده ، وأنه لا يأمر إلا بالخير والقسط وبالصلاة والإخلاص ، وفيها تقرير للبعث والحساب والجزاء للعاصين والطائعين على حد سواء . . وقوله تعالى فى هذه الآيات الثلاث الكريمة . . «وإذ فعلوا فاحشة» أى كالشرك وطوافهم بالبيت عراة فنهوا عنه «قالوا» أى معللين لارتكابهم إياها بأمرين : أحدهما قولهم «وجدنا عليها» أى الفاحشة «آباءنا» فاقتدينا بهم ، والثانى قولهم «والله أمرنا بها» افتراء على الله سبحانه وتعالى فأعرض الله عن الأول لظهور فساده ورد عن الثانى بقوله «قل» لهم يا محمد «إن الله لا يأمر بالفحشاء» لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال «أتقولون على الله ما لا تعلمون» ؟ أى مما لا تعرفون أنه قاله ، فإنكم لم تسمعوا كلام الله

من غير واسطة ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله وبين عباده. وهو استفهام إنكارى يتضمن النهى عن الافتراء على الله «قل» يا محمد لهؤلاء الذين يقولون ذلك «أمر ربى بالقسط» أى بالعدل، وقال ابن عباس: أمر بلا إله إلا الله «وأقيموا» أى وقل لهم أقيموا «وجوهكم» لله «عند كل مسجد» أى أخلصوا له سجودكم، والتقدير: قل أمر ربى بالقسط وقل أقيموا، وقيل معنى الآية: وجهوا وجوهكم حيث ما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة، وقيل معناه: صلوا فى أى مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم «وادعوه» أى اعبدوه «مخلصين له الدين» أى الطاعة ولا تشركوا به شيئا فان إليه مصيركم «كما بدأكم» أى أنشأكم ابتداء «تعودون» أى يعيدكم أحياء يوم القيامة، حالة كونكم فريقين «فريقا هدى» أى خلق الهداية فى قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية «وفريقا حق» أى ثبت ووجب «عليهم الضلالة» أى بمقتضى القضاء السابق. وقيل: إن الله تعالى بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى: هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم مؤمنا وكافرا، وقيل يبعثون على ما كانوا عليه، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: يبعث كل عبد على مامات عليه، المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره، وقيل: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل عمل أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون بعمل الشقاوة فصاروا إلى السعادة، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم، والتقدير: وخذل فريقا، وقوله تعالى «إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله» أى دونه، وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالهم «ويحسبون» أى يظنون «أنهم» مع ضلالهم «مهتدون» أى على هداية وحق، وفيه دليل على أن الكافر الذى يظن أنه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء.

وبهذا ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء الكريم، وقد تضمن ما تضمن من الأصول الجليلة والمبادىء الشريفة، ومن الإرشاد والتوجيه، ومن

الإنذار والتحذير ، ومن الدعوة إلى الإيمان بهدى الله وشرائعه ونوره . .
فى هذا الربع الكريم :

١ — تنويه بالقرآن الكريم وأمر باتباعه عن يقين وإخلاص ، وترك اتباع الشياطين ، والأصنام والأوثان ، وقد سعد من اتبع هدى القرآن ، وفاز من عمل بهديه ونوره ، وخاب من اتخذ الشياطين والأصنام له أولياء وآلهة ومرشدين .

٢ — تحذير المشركين من مثل مصارع الأمم البائدة ، ومن سوء مصائرها ومن العذاب الشديد الذى حاق بها ، ومن الخذلان العظيم الذى خذله الله عز وجل إياها ، وتأكيد مسئولية هؤلاء المشركين يوم القيامة ، يوم يسأل الله جل وعلا الرسل وقومهم ، وينبئهم الله بكل شىء : صغيره وكبيره على السواء ، يوم يفوز الصالحون الذين ثقلت موازينهم فى الحساب ، ويخيب الطالحون الذين خفت موازينهم عند الله ، والذين خسروا أنفسهم بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم وظلمهم لله ولأنفسهم .

٣ — التنويه بنعم الله تعالى على البشر كافة ، وفى مقدمتها نعمة الخلق والتكوين ونعمة التمكين فى الأرض وتسخيرها للناس وجعل معايشهم منها .

٤ — التنبيه إلى أن الشاكرين الأوفياء من بنى آدم قليلون ، والشاكر لله أنعمه هو فى الحق السعيد الفائز فى الدنيا والآخرة ، وأكثر الناس لا يشكرون نعمة الله عليهم ، والقليلون هم الشاكرون الحامدون المخلصون .

٥ — ثم ضرب الله قصة إبليس وعصيانه مثلا للكفر وعدم الشكر ، وبين جزاء إبليس وعقابه الشديد عند الله ، كما ضرب قصة آدم مع إبليس مثلا لشكر آدم وإنابته وطاعته لله عز وجل قد قبل الله عز وجل توبته ، وهبط به إلى الأرض هو وزوجه حواء يعمرانها ويعيشان فيها خلفاء لله فى أرضه . .

٦ — بيان نعمة الله على البشر بهدايتهم إلى اتخاذ الثياب لستر العورة ، وللزينة ، والدعوة إلى أن يتزين الإنسان بلباس التقوى أولا ، فهو خير لباس ، وأكبر ثياب ، وأعظم زينة . .

٧ — دعوة البشر جميعاً إلى البعد عن فتنة الشيطان وإغرائه ، وعن وسوسته وتزيينه ، والنهى عن اتخاذهم أولياء ، فلن يتخذهم أولياء إلا الذين لا يؤمنون بالله وبالدين وبالحق .

٨ — بيان أن الله عز وجل لا يأمر إلا بالحق والهدى والنور والخير والطهر وبالقسط ، كما أمر بأداء الصلاة والإخلاص لله ، فذلك هو سر النجاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

٩ — تقرير أمر البعث وتأكيده وإقامة الأدلة عليه ، وأن الله الذى بدأ الخلق ابتداء قادر على إعادة خلقهم وتصويرهم بعد موتهم ..

١٠ — بيان أن الصالحين المطيعين الذين هداهم الله يبعثون ليلقوا الرحمة والثواب عند الله ، أما العاصون الضالون الذين حقت عليهم الضلالة ، فهم الذين خسروا أنفسهم ، بسبب أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، وبسبب إصرارهم على اعتقاد أنهم على الحق وهم على الباطل ، والباطل مخذول مدحور ، وهم بسبب ذلك مخذولون مدحورون مطرودون من رحمة الله ورضوانه ونعميه الأبدى المقيم .

الربع السادس

٣١ — يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ .

٣٢ — قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

٣٣ — قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

ثلاث آيات كريمة هن مطلع الربع السادس من هذا الجزء الكريم ، وفيها يأمر الله عز وجل بنى آدم بأخذ زينتهم عند الصلاة ، وبعدم الإسراف فى الطعام والشراب ، وينهاهم عن الفواحش وعن الإثم والبغى والشرك وعن الافتراء على الله بالكذب والبهتان . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « يا بنى آدم خذوا زينتكم » أى ما يستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة « عند كل مسجد » أى كلما صليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة ، وعن طاووس رحمه الله تعالى : لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وأما أحدهم فقد كان يطوف عريانا ويضع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه لأنهم قالوا : لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، وقيل : تفاؤلا لينفروا من الذنوب كما نفروا من الثياب وقيل : الزينة المشط ، وقيل : الطيب ، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وكان بنو عامر لا يأكلون الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما ، يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : فإنا أحق أن نفعل فقيل لهم « فكلوا واشربوا ولا تسرفوا » بتحريم الحلال أو بالتعرى فى الطواف أو بإفراط الطعام والشره عليه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأت خصلتان : سرف ومخيلة ، وروى أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له : لقد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه فقال : وما هى ؟ قال قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » فقال النصرانى : ولا يؤثر عن نبيكم شىء فى الطب ، فقال : جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيره ، قال : وما هى ؟ قال : قوله « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء فاعط كل بدن ما عودته » فقال النصرانى : ماترك كتابكم ولا نبيكم

لجالينوس طبا « إنه لايحب المسرفين » أى لا يرتضى فعلهم ، فنى الآية الوعيد الشديد على الإسراف « قل » ياحمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة « من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » من الثياب والحلى ، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير للرجال لدخل فى هذا العموم ، ولكن ورد النص فى تحريمه على الرجال دون النساء « و » قل أيضاً لهؤلاء الجهلة الذين كانوا لايأكلون دسما يعظون بذلك حجهم « الطيبات من الرزق » التى أخرج لعباده وخلقها لهم فيدخل تحت ذلك كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما ورد النص بتحريمه ، وقد دلت الآية على أن الأصل فى الملابس وأنواع التجملات والمطاعم الإباحة إلا ماورد النص بخلافه ، لأن الاستفهام فى (من) للانكار « قل هى » أى الزينة والطيبات « للذين آمنوا فى الحياة الدنيا » أى بالإصالة ، والكفار وإن شاركوهم فيها فهم تبع لنا ، ولذا لم يقل تعالى : للذين آمنوا وغيرهم « خالصة يوم القيامة » أى لايشاركهم فيها غيرهم « كذلك » أى مثل هذا التفصيل البديع « نفصل الآيات » أى نبين أحكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض « لقوم يعلمون » أى يتدبرون فانهم المنتفعون بها « قل » ياحمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون الطيبات من الرزق وغير ذلك مما أحل الله تعالى « إنما حرم ربى الفواحش » أى الكبائر ، والكبيرة : ما توعد الله عز وجل عليها بنحو لعن أو غضب بخصوصها فى الكتاب أو السنة غالبا كالزنا ، جمع فاحشة « ماظهر منها وما بطن » أى جهرها وسرها « والإثم » أى الصغائر وهى ماعدا الكبائر كالنظر إلى أجنبيه « و » حرم « البغى » على الناس أى الظلم والكبر ، وأفرده بالذكر مع أنه من الكبائر للمبالغة وقوله تعالى « بغير الحق » متعلق بالبغى مؤكد له « و » حرم « أن تشركوا بالله مالم ينزل به » أى بإشراكه « سلطانا » أى حجة وفى ذلك تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم مالم يدل عليه برهان « و » حرم « أن تقولوا على الله مالا تعلمون » فى تحريم مالم يحرم وغيره .

٣٤ — وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

٣٥ — يَٰبَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

٣٦ — وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

وهذه ثلاث آيات كريمة أخرى فيها تقرير أن لكل أمة أجلا ، كما أن لكل فرد أجلا ، فإذا جاء أجل أية أمة من الأمم وأراد الله إهلاكها لا تتأخر عنه ولا تتقدم عليه ، وفيها أمر من الله بالإيمان برسالات الأنبياء وكتبهم وبتقوى الله وإصلاح النية والعمل ويبين الله عز وجل جزاء هؤلاء المؤمنين المتقين المصلحين وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . أما المكذبون الكافرون المستكبرون عن آيات الله فهم أصحاب النار ، وهم فيها خالدون . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : «ولكل أمة أجل» أى وقت معلوم ، وفى ذلك وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم الماضية «فإذا جاء أجلهم» أى حان وقتهم «لا يستأخرون ساعة» عنه «ولا يستقدمون» ساعة عليه ، وإنما ذكرت الساعة وإن كان دونها كذلك لأنها أقل اسم للأوقات فى العرف ، وذلك حين سألوا نزول العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية «يابنى آدم إما» أى إن ما ، و(إن) شرطية و(ما) زائدة «يأتينكم رسل منكم» أى من نوعكم من عند ربكم «يقصون عليكم آياتى» أى يقرأون عليكم كتابى وأدلة أحكامى وشرائعى التى شرعت لعبادى «فمن اتقى» أى الشرك ومخالفة رسلى «وأصلح» عمله الذى أمرته به فعمل بطاعتى

وتجنب معصيتي وما نهيت عنه « فلا خوف عليهم » حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب « ولاهم يحزنون » أى لا يتجدد لهم فى وقت ماحزن على شيء فاتهم ، فإن الله يعطيهم ماتقر به أعينهم « والذين كذبوا بآياتنا » أى جحدوها وكذبوا سبلنا « واستكبروا » أى تكبروا « عنها » أى عن الإيمان بها ؛ لأن كل مكذب وكافر متكبر ، قال تعالى : إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون « أولئك » أى هؤلاء البعداء البغضاء « أصحاب النار هم فيها خالدون » أى لايخرجون منها أبدا .

٣٧ — فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ .

٣٨ — قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ .

٣٩ — وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

ثلاث آيات أخرى فيها بيان لشدة ظلم الذين يفترون على الله الكذب والذين يكذبون بآيات الله ، وشدة ظلمهم للحقيقة ولأنفسهم ، ولله تعالى ،

فهؤلاء يستوفون حظوظهم المقدرة لهم ، حتى إذا جاء أجلهم ؛ وتوفتهم ملائكة الموت سخرت بهم الملائكة وبما كانوا يعبدون من دون الله ، واعترف هؤلاء الظالمون بكفرهم وكذبهم . ويبين الله عز وجل مايدور بين طبقات الكافرين من حوار فى النار ، ولعن كل طبقة لأختها ودعائهم عليهم ، فى أسلوب بليغ مشرق ، وحوار مؤثر محزن ، وفى بيان طريف جديد . . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة . . . «فمن» أى لاأحد «أظلم ممن افترى على الله كذبا» أى بنسبة الشريك والولد إليه أو قال عليه مالم يقل له «أو كذب بآياته» أى القرآن «أولئك ينالهم» أى يصيبهم «نصيبهم» أى حظهم «من الكتاب» أى مما كتب لهم فى اللوح المحفوظ من الرزق والأجل وغير ذلك «حتى إذا جاءتهم» أى هؤلاء الذى يفترون على الله الكذب «رسلنا» أى ملك الموت وأعوانه «يتوفونهم» بقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم وقوله تعالى «قالوا» جواب إذا ، أى قال الرسل لهم تبكيتا وتوبيخا وتقريعا «أينما كنتم تدعون» أى تعبدون «من دون الله» أى غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل : إن هذا يكون فى الآخرة أى إذا جاءتهم ملائكة العقاب يتوفونهم أى يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار «قالوا» أى الكفار مجيبين للرسل «ضلوا» أى غابوا «عنا» وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا «وشهدوا على أنفسهم» أى بالغوا فى الاعتراف عند الموت أو عند معاينة العذاب «أنهم كانوا كافرين» أى جاحدين وحدانية الله تعالى «قال» الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة «ادخلوا فى أمم» أى فى جملة جماعات وفرق قد أمم بعضها بعضا «قد خلت» أى مضت وسلفت «من قبلكم من الجن والإنس» أى كفار الأمم الماضية من الفريقين «فى النار» متعلق بادخلوا «كلما دخلت أمة» أى جماعات النار «لعنت أختها» أى التى ضلت بالاقتداء بها «حتى إذا اداركوا» أى تلاحقوا وتجمعوا واستقروا «فيها» أى فى النار «جميعا قالت أخراهم» أى منزلة أودخولا وهم الاتباع «لأولادهم» أى لأجلهم وهم المتبعون ، إذ الخطاب مع الله تعالى لامعهم «ربنا هؤلاء» أى الأولون

« أضلونا » أى لأنهم أول من سن الضلال « فآتهم » أى أذقهم بسبب ذلك « عذابا ضعفا » أى يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين ، لأنهم ضلوا وأضلوا، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . . وقد ورد : لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفعل من أهرق دمها لأنه أول من سن القتل، ثم أكدوا شدة العذاب بقولهم « من النار قال » أى الله تعالى « لكل » أى منكم ومنهم « ضعف » أى عذاب مضاعف : أما القادة فبكفرهم وتضليلهم ، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم لهم « ولكن لاتعلمون » أى ماأعد الله تعالى لكل فريق منهم من العذاب « وقالت أولاهم » أى فى الكفر وهم القادة «لأخراهم » أى الأتباع « فما كان لكم علينا من فضل » أى لأنكم لم تكفروا بسببنا فقد جاءتكم الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم فنحن وأنتم سواء ، قال الله تعالى : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» أى من الكفر والأعمال الخبيثة .

٤٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ .

٤١ — لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٢ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٤٣ — وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ

هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فى هذه الآيات الأربع عود إلى بيان المكذبين وجزائهم الأليم فى الآخرة ، وإلى بيان المؤمنين ونعيمهم فى الجنة عند الله عز وجل .. يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة ... « إن الذين كذبوا بآياتنا » أى بدلائل التوحيد فلم يصدقوا ولم يتبعوا رسلى « واستكبروا عنها » أى وتكبروا عن الإيمان بها والانقياد لها والعمل بمقتضاها « لا تفتح لهم أبواب السماء » لصعود أعمالهم ولا لدعائهم ولا لأرواحهم ولا لنزول البركات عليهم لأنها طهارة من الأرجاس الحسية والمعنوية ، فإذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الأبواب دونها ثم ألقيت من هناك إلى سجين ، بخلاف المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه إلى السماء السابعة كما ورد فى الحديث « ولا يدخلون الجنة » أى التى هى أطهر المنازل وأشرفها « حتى » يكون مالا يكون بأن « يلج » أى يدخل « الجمل » على كبره « فى سم الخياط » أى من ثقب الإبرة وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم الجنة فهو تعليق على محال ، وعن ابن مسعود ـ أنه سئل عن الجمل ، فقال : هو زوج الناقة استجهالا للسائل « وكذلك » أى ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب ، وهو أن دخولهم الجنة محال عادة « نجزى المجرمين » أى الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها ، وهذه صفة الكفار ، فوجب حمل لفظ المجرمين على الكفار ، فهم لا يدخلون الجنة أبداً ، ثم بين أنهم من أهل النار ، ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى « لهم من جهنم مهاد » أى فراش ، وأصل المهاد المهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالبساط « ومن فوقهم غواش » أى أغطية من النار ، جمع غاشية « وكذلك نجزى الظالمين » عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة ، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة ، والظلم مع التعذيب

بالنار تنبيها على أنه أعظم من الإجرام ، وقوله تعالى « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى امتثالا لشريعة الله « لا نكلف نفسا إلا وسعها » أى طاقتها من العمل ، وهذه جملة معترضة ، وخبر الجملة السابقة هو قوله تعالى « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ووقعت الجملة المعترضة هنا لأنها هى من جنس هذا الكلام ، لأن الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح دل ذلك على أن العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل كلفة ومشقة صعبة ، وأتبع الوعيد بالوعد على عادته تعالى فقال « ونزعنا مافى صدورهم من غل » أى غش وعداوة كانت بينهم فى الدنيا، فمن كان فى قلبه على أخيه غل فى الدنيا نزع ، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التودد والتعاطف ، وعن على رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا ذهبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلته فى الجنة منه بمنزلته التى كان فى الدنيا . وقال السدى فى تفسير هذه الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فنزع مافى صدورهم من غل وهو الشراب الطهور واغتسلوا من الآخر . فجرت عليهم بنضرة النعيم فلا يتعاتبون ولا يتشاحنون بعدها أبدا . وقيل : إن درجات الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنـة أعلا من بعض ، فأخرج الله تعالى الغـل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة العالية « تجرى من تحتهم الأنهار » أى من تحت قصورها زيادة فى لذتهم وسرورهم « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا » أى المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه وإحسانا ، وصرف عنا عذاب جهنم بفضله

وكرمه فلله الحمد على ذلك « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله» أى لولا هداية الله وتوفيقه ، وتقدير الكلام : لولا هداية الله لنا موجودة لشقينا أو ما كنا مهتدين ، وإذا دخل أهل النعيم الجنة ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من النعيم قالوا «لقد جاءت رسل ربنا بالحق»فاهتدينا بإرشادهم ، يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا وتلذذوا بالتكلم به وتحققوا بأن ما عملوه يقينا فى الدنيا صار لهم عين اليقين فى الآخرة « ونودوا » إذا رأوها من بعيد أو بعد دخولها ، والمنادى هو الله تعالى أو الملائكة ينادون بأمر الله تعالى « أن تلكمو الجنة » التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة نادى مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا ، فذلك قوله تعالى : ونودوا أن تلكموا الجنة التى « أورثتموها» أى أعطيتموها «بما كنتم تعملون » أى بسبب أعمالكم الصالحة التى عملتموها ، لأن الجنة جعلت جزاء وثوابا لكم على الأعمال الصالحة ، ولا يعارض هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يدخل الجنة أحد بعمله إنما يدخلونها برحمة الله تعالى » فإن الباء فى الحديث للعوض وهى الداخلة على الأثمان ، نحو اشتريت البيت بألف جنيه فلا تكون الجنة مشتراة له بعمله ، وإنما دخول الجنة برحمة الله ، أو أن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله وتوفيقه ، وإذا كان العمل الصالح سبب الرحمة كان دخول الجنة فى الحقيقة برحمة الله وجعلها الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التى عملوها فى دار الدنيا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فأما الكافر فيرث المؤمنُ منزله من الجنة ، والمؤمن يرث الكافر منزله من النار .

٤٤ — وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ

مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

٤٥ — الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

٤٦ — وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث حوار بديع بين طبقات أصحاب النار وأهل الجنة والواقفين بالأعراف يتطلعون إلى هؤلاء وهؤلاء ، وينتظرون رحمة الله وعفوه ، ويبشرون أهل الجنة برضوان الله ، ويطمعون فى دخولها معهم . .
وفى هذه الآيات الثلاث يقول الله عز وجل . . « ونادى أصحاب » أى أهل « الجنة أصحاب » أى أهل « النار » أى قال أهل الجنة : يا أهل النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا » أى فى الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته « حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم» أى من العذاب على الكفر « حقا قالوا » أى قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة : « نعم » وجدنا ذلك حقاً، وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وهذا النداء من أهل الجنة هو فى ظاهره على العموم ، ويحتمل أن كل واحد من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى الدنيا والله أعلم بحقيقة ذلك، « فأذن مؤذن » أى وهو إسرافيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس ، أو واحد من الملائكة ، وأصل الأذان فى اللغة الإعلام ، والمعنى : نادى مناد « بينهم » أى بين الفريقين ، أسمعهم « أن لعنة الله على الظالمين » وفسر الله عز وجل الظالمين منهم بقوله تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله » أى يمنعون الناس عن الدخول فى دين الإسلام « ويبغونها » أى يطلبون السبيل « عوجا » أى معوجة ، قال ابن عباس : يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله ،

والعوج بكسر العين فى الدين والأمر وكل ما لم يكن قائما ولا مستقيما « وهم بالآخرة كافرون » أى جاحدون منكرون لها « وبينهما » أى أهل الجنة وأهل النار « حجاب » لقوله تعالى : « فضرب بينهم بسور » ؛ أو بين الجنة والنار ليمتنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى « وعلى الأعراف » وهو سور الجنة جمع عرف وهو المكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده ؛ وقال السدى : سمى ذلك السور أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس أى أهل الجنة والنار « رجال » أى طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم كما فى الحديث فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ما يشاء ، ثم يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته وهم آخر من يدخل الجنة ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » ، ثم قال : إن الميزان تخف بمثقال حبة أو ترجح ، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ، وقيل : هم قوم خرجوا إلى الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم فى سبيل الله وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم ، فهم آخر من يدخل الجنة ، وقيل : هم الذين ماتوا فى الفترة بين الرسالتين ولم يبدلوا دينهم ، وقيل : هم أطفال المشركين « يعرفون » أى أصحاب الأعراف « كلا » من أهل الجنة والنار « بسيماهم » أى بعلاماتهم وهى بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم إذ موضعهم عال « ونادوا » أى ونادى أصحاب الأعراف « أصحابَ الجنة أن سلام عليكم » أى إذا نظروا إليهم سلموا عليهم « لم يدخلوها » أى لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة « وهم يطمعون » فى دخولها ، قال الحسن : لم يطمعهم إلا لكرامة يريدها بهم .

وروى الحاكم عن حذيفة قال : بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال :

قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم ، وقال مجاهد : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء ، وعلى هذا إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة ، وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم ، وحكى ابن الأنبارى أنهم أنبياء ، وعلى هذا إنما أجلسهم الله عز وجل على ذلك المرتفع العالى تمييزاً لهم على أهل القيامة وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار . وقوله تعالى « لم يدخلوها وهم يطمعون » على هذا مشكل ، وقال أبو مخلد : هم ملائكة يرون فى صورة الرجال والأقوال الأولى تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة فى الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله والأقوال الأخيرة على أنهم أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل .

وبهذا ينتهى الربع السادس من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد تضمن من الأصول العامة ما يلى :

١ — الأمر بالنظافة وحسن الثياب وخاصة عند الصلاة ، ولا عجب فالإسلام دين النظافة والطهارة ودين الطهر والتوحيد .

٢ — الأمر بترك الإسراف ، وخاصة فى الطعام والشراب ، فإن الإسراف يدعو إلى الفقر أو إلى الترف ، وكلاهما ضار بالإنسان ، والخير فى الاعتدال .

٣ — التنديد بالذين حرموا فضل الله على الناس ، وحرموا الطيبات من الرزق كذلك ، وبيان أن المال والرزق يشترك فيهما الكافر والمؤمن فى الدنيا ، ولكنها خالصة للمؤمن فى الآخرة ، ثوابا من عند الله ، وعند الله حسن الثواب .

٤ — تقرير أن الله لم يحرم على عباده إلا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والافتراء على الله .. الفاحشة والإثم والاعتداء والشر والكذب على الله — هى كلها أمهات الموبقات ، وأصول الشر ، وأسس الفساد .

٥ — للأمم آجال كالأفراد ، وعند ما يأتى أية أمة أجلها فلن تتأخر عنه ، كما أنها لا تتقدم عليه بأية حال من الأحوال .

٦ — والعبرة من هذا أنه يجب على الأمم الإيمان برسلها وأنبيائها وبالكتب المنزلة من السماء ، حتى تكون عاقبتها الخير ، وحتى لا يدهمها عذاب الله وسخطه ، فللمتقين الخير والنعيم وللعاصين والمكذبين والمستكبرين عذاب الجحيم ، وإنه ليس هناك أظلم ممن يفترون على الله الكذب أو يكذبون بآياته ، فمصير هؤلاء هو الشر وسوء العذاب ، يوم يشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا فى الدنيا كافرين .

٧ — أصحاب النار عند ما يتزاحمون فيها يكون بينهم حوار وجدل ، كله عبرة وعظة للمعتبرين .

٨ — تأكيد سخط الله وغضبه على المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها من أمثال مشركى مكة ، فهم فى الآخرة لهم عذاب شديد وغضب من الله .. أما المؤمنون والذين عملوا الصالحات ، فأولئك هم الفائزون برحمة الله ورضوانه ولهم حسن العاقبة وهم فى رضاء موصول من الله ، جزاء عملهم الصالح الطيب المبرور فى الدنيا .

٩ — تسجيل مايكون فى الآخرة من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وأهل الأعراف ، وقد بدأ الله عز وجل بخطاب أهل الجنة لأهل النار ، ثم بخطاب أهل الأعراف لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، ثم أعقب ذلك فى الربع التالى بخطاب أهل النار لأهل الجنة ؛ مع بيان العبرة من هذا الحوار ، وتقرير عدل الله ورحمته بالناس جميعا ، ولا يحاسب إلا بعد بيان .

الربع السابع

٤٧ — وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٨ — وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

٤٩ — أَهَـٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ .

٥٠ — وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .

٥١ — ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

فى هذه الآيات الخمس الكريمة تتمة الحوار بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف، وفيها يكمل الله عز وجل حديث أصحاب الأعراف الذى بدأ به فى الآية السابقة حيث ذكر الله عز وجل فيها نداءهم لأهل الجنة وطمعهم فى دخولها، ثم ذكر هنا فى الآية الأولى استعاذتهم بالله من دخول النار مع القوم الظالمين وذلك حين يرون أهل النار ، وفى الآية الثانية يذكر الله عز وجل خطابهم لأناس يعرفونهم من أهل النار من ذوى السلطان والمال فى الدنيا ، وفى الآية الثالثة يتهكم أهل الأعراف بهؤلاء المشهورين الذين صاروا إلى النار لسخريتهم فى الدنيا بأهل الجنة ، الذين قيل لهم فى الآخرة : ادخلوا الجنة بسلام فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، وفى الآية الرابعة يذكر الله عز وجل حديث أهل النار إلى أهل الجنة ، وطلبهم منهم السقيا والأكل مما رزقهم الله ، ورد أهل الجنة عليهم بأن الله حرم هذا الماء وهذا الطعام على الكافرين ، وفى الآية الخامسة وصف لهؤلاء الكافرين بأنهم اتخذوا دينهم هزؤا وسخرية ، وأنهم غرتهم الدنيا وباطلها وزخرفها ، وأن الله نسيهم فى الآخرة كما نسوا لقاء الله فى الدنيا ، وبسبب جحودهم بآيات الله .

يقول الله تعالى « وإذا صرفت أبصارهم » أى أصحاب الأعراف « تلقاء » أى جهة « أصحاب النار » فنظروا لهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب « قالوا ربنالا تجعلنا مع القوم الظالمين » أى الكافرين فى النار ، قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أصحاب النار وما هم فيه تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم « ونادى أصحاب الأعراف رجالا » أى كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار « يعرفونهم بسيماهم » أى بسيما أهل النار « قالوا » أى أصحاب الأعراف هؤلاء الذين عرفوهم فى النار « ما أغنى عنكم جمعكم » أى ما كنتم تجمعون من الأموال فى الدنيا ، أو كثرتكم واجتماعكم فيها « وما كنتم تستكبرون » أى وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئاً ، قال الكلبى : ينادونهم على السور : يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام ، يا فلان ، ويا فلان ، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم، مثل سلمان الفارسى وخباب وصهيب وبلال وأشباههم، فيقول أصحاب الأعراف لهؤلاء الكفار «أهؤلاء» لفظ استفهام أى هؤلاء الضعفاء « الذين أقسمتم » أى حلفتم بالله « لا ينالهم الله برحمة » أى لا يدخلون الجنة وقد قيل : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » وقيل : إن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا ، قال لهم أهل النار: إن دخل هؤلاء الجنة فأنتم لم تدخلوا فيعيرونهم بذلك ، ويقسمون أنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة ، فتقول الملائكة الذين حبسوا أهل الأعراف : ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، وهذا ظاهر على الأقوال الأولى « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء » أى صبوه «أو مما رزقكم الله » أى من سائر الأشربة أو من الأكل والطعام «قالوا» أى أهل الجنة مجيبين لهم « إن الله حرمهما » أى منعهما « على الكافرين » أى منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله : حرام على عينى أن تطعم الكرا ، وقيل : لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الأكل والشرب وعذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا

يعتادونه فى الدنيا من طلب الأكل والشرب ، فأجيبوا بأن الله تعالى حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ، ثم وصف الله تعالى الكافرين بقوله « الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا » وهو ما زين لهم الشيطان من سائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية ؛ وقيل : كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم وهزؤا به ، واللهو هو صرف الفكر بما لا يحسن أن يصرف له ، واللعب طلب الفرح بما لايحسن أن يطلب به « وغرتهم الحياة الدنيا » أى وخدعهم عاجل ماهم فيه من رغد العيش والدعة وشغلهم ماهم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسوله وعن الأخذ بنصيبهم فى الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك، والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الإنسان فى طول العمر ، وحسن العيش ، وكثرة المال، وقيل : الجاه ، ونيل الشهوات ، فإذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لأنه غريق فى الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك . ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال : فاليوم أى يوم القيامة « ننساهم » أى نتركهم فى النار ونعرض عنهم فلا نجيب دعاءهم ولانرحم ضعفهم « كما نسوا لقاء يومهم هذا » أى كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناسين فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا له، وأعرضوا عن الإيمان فقال الله تعالى : نعاملهم جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز، لأن الله تعالى لاينسى شيئاً ، فهو كقوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . . . « وما كانوا بآياتنا يجحدون » أى وما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى .

٥٢ — وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

٥٣ — هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا

نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين ذكر لنزول القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن هؤلاء الكافرين أهملوه ونسوه حتى فوجئوا بوعيد الله ، وندموا على ماصنعوا، وغاب عنهم شركاؤهم الذين افتروها على الله .. يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين « ولقد جئناهم » أى هؤلاء الكفار « بكتاب » أى قرآن أنزلناه عليك يامحمد « فصلناه » أى بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة «على علم» أى عالمين وجه تفصيله «هدى ورحمة لقوم يؤمنون» أى به « هل ينظرون » أى ماينظرون «إلا تأويله » أى إلا عاقبة أمره ومايؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة مانطق به من الوعد والوعيد «يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل » أى من قبل يوم الآخرة « قدجاءت رسل ربنا بالحق» أى قد تبين لهم واعترفوا يوم القيامة بأن ماجاءت به الرسل من الإيمان والحشر والنشر والبعث والثواب والعقاب حق ، ولكن لاينفعهم ذلك الاعتراف ، ولما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا» اليوم « أو نرد » أى أوهل نرد إلى الدنيا « فنعمل غير الذى كنا نعمل » فيها فنبدل الكفر بالإيمان والتوحيد والمعاصى بالطاعة والإنابة « قد خسروا أنفسهم » أى صاروا إلى الهلاك لأنهم كانوا فى الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ، ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله فيهم « وضل » أى غاب وذهب « عنهم ما كانوا يفترون » من دعوى الشرك فلم ينفعهم ذلك شيئا ولم يغنهم من عذاب الله .

٥٤ — إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٥٥ — ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ .

٥٦ — وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٥٧ — وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

٥٨ — وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

فى هذه الآيات الخمس بيان لقدرة الله تعالى وعظمته فى الخلق ، وتصوير لإيجاده الأرض والسموات وخلقه لهما ، ومثل هذا الإله العظيم حرى بالمشركين أن يعبدوه وأن يتضرعوا إليه ، وأن يؤمنوا به ، وأن يطيعوه ولا يعتدوا على شرائعه بإهمالها وتركها ، وحرى بالمشركين كذلك أن يستقيموا ولا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وأن يعبدوه حق عبادته ، فرحمة الله قريبة من المحسنين فى الإيمان وفى العمل . . ثم يبين الله عز وجل فى الآية الرابعة قدرته فى تصريف الرياح وإنزال الماء وإخراج الزرع والنبات والشجر به ، وفى هذا دليل وأى دليل على قدرته على إحياء الموتى وبعثهم من القبور ، فالذى يحيى الأرض قادر على إحياء الناس . وفى الآية الخامسة تورية بالمشركين وأنهم لا يؤمنون بشىء ، وإكبار للمؤمنين وأنهم من نبت طيب كريم زكا أصله وطاب فرعه . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الخمس الكريمة . . .

« ان ربكم » أى خالقكم ومولاكم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم ومانع المكاره عنكم هو « الله الذى خلق السموات والأرض » أى ابتدعهما وأنشأ

خلقهما على غير مثال سبق « فى ستة أيام » أى من أيام الدنيا وقيل : من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة ، ومعنى ذلك فى مقدار ستة أيام ، فهو كقوله تعالى « لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » أى على مقادير البكرة والعشى فى الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار ، قال سعيد بن جبير . وكان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض فى لمحة ولحظة فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الأمور ، وقد جاء فى الحديث : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتدأ الله خلق الأشياء فيه ، فقيل: هو يوم السبت لخبر مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق الجنة يوم الثلاثاء ، وخلق النار يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار وفيما بين العصر إلى الليل ، وقيل : يوم الأحد لقول بعضهم : إنما سمى يوم الإثنين لأنه ثانى الأيام والخميس لأنه خامس الأيام «ثم استوى على العرش » أى استوى أمره ، وقال أهل السنة : الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف يجب الإيمان به ونكل علمه إلى الله تعالى ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى استوى على العرش على الوجه الذى عناه لأنه منزه عن الاستقرار والتمكن ، وسأل رجل مالك ابن أنس عن قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى » فأطرق رأسه مليا ثم قال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالا ، ثم أمر به فأخرج . . وروى عن سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة : أمروها كما جاءت ، اقرأوها بلا كيف : وإجماع السلف ينعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية .. والعرش فى اللغة السرير قال كعب : إن السموات فى العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض . وقال قوم : العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر قال تعالى : وكان عرشه على الماء وبعضهم

يقول: استوى بمعنى استولى والاستواء: هو بمعنى الاستيلاء. قال ابن الأعرابى: لا يعرف استولى فلان على كذا إلا إذا كان بعيدا منه غير متمكن منه ثم تمكن فيه والله تعالى لم يزل مستوليا على الأشياء استيلاء من لم يكن مستوليا « يغشى الليل النهار » أى يغطيه، ولم يذكر عكسه إما للعلم وإما لأن اللفظ يحتملهما بأن يكون المعنى بأن يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل « يطلبه » أى يطلب كلا منهما الآخر طلبا « حثيثا » أى سريعا فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل « والشمس والقمر والنجوم مسخرات » أى مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر وتصريفه لهن « بأمره » أى بقضائه وقرىء برفع هذه الأربعة على الابتداء والخبر، وبنصبها عطفا على السموات، ومسخرات منصوب على هذا الوجه بالكسر « ألا له الخلق » جميعاً « والأمر » كله فإنه الموجد والمتصرف فى ذلك، « تبارك الله رب العالمين » أى تعالى بالوحدانية، وتعظم بالتفرد فى الربوبية، قال البيضاوى: وتحقيق الآية والله أعلم أن الكفار كانوا متخذين أرباباً، فبين الله تعالى لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لأنه الذى له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله تعالى « فقضاهن سبع سموات فى يومين » وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية ثم قسمها بصور نوعية، وقوله تعالى « خلق الأرض فى يومين » أى مافى جهة السفل فى يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة أى وهى النبات والحيوان والمعدن كما قال تعالى - بعد قوله « خلق الأرض فى يومين »: « وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة ايام » أى مع اليومين الأولين اللذين خلق فيهما السموات، لقوله تعالى فى سورة السجدة « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام »، ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكرير الليالى والأيام، ثم صرح بما هو نتيجة ذلك فقال: « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب

العالمين » ثم أمرهم أن يدعوه متذللين مخلصين بقوله تعالى « ادعوا ربكم » لأن الداعى لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله ، وعرف أن ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على إيصالها إلى الداعى ، فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال ، وهو المراد من قوله « تضرعا » أى ادعوا ربكم تذللا واستكانة ، وهو إظهار الذل فى النفس والخشوع ، يقال : ضرع فلان لفلان إذا ذل له وخشع « وخفية » أى سراً فى أنفسكم وهو ضد العلانية ، والأدب فى الدعاء أن يكون خفياً لهذه الآية ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيرا وهو معكم ، قال أبو موسى : وأنا خلفه أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله فى نفسى ، فقال : يا عبد الله بن قيس ، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقال الحسن : بين دعوة السر والجهر سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجهرون فى الدعاء لا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ادعوا ربكم تضرعا وخفية فإن الله تعالى أثنى على زكريا عليه السلام فقال : إذ نادى ربه نداء خفياً ، وعن الحسن أيضا : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يفعلوه فى السر فيكون علانية أبداً « إنه » تعالى « لا يحب المعتدين » أى المجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره ، ونبه بهذا على أن الداعى ينبغى له أن لا يطلب مالا يليق به كرتبة الأنبياء والصعود إلى السماء روى أن عبدالله بن معقل سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : يا بنى سل الله الجنة وتعوذ من النار فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء ، وقيل : أراد به الاعتداء فى

الجهر ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح ، وعنه صلى الله عليه وسلم : سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ، وحسب المرء أن يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ثم قرأ« إنه لايحب المعتدين» .. «ولا تفسدوا فى الأرض » اى بالشرك والمعاصى « بعد إصلاحها » أى ببعث الرسل وشرع الأحكام ، وقيل : لا تفسدوا فى الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى «بعد إصلاحها» أى بعد إصلاح الله تعالى إياها بالمطر والخصب « وادعوه خوفا » منه ومن عذابه « وطمعا » أى فيما عنده من مغفرته وثوابه ، وقال ابن جريج : خوف العدل وطمع الفضل « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أى المطيعين ، وقال سعيد بن جبير : الرحمة ها هنا الثواب ، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ ، وقيل : إن تأنيث الرحمة ليس بحقيق وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة ، وقيل : ذكره للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التأنيث فى الأول فيقال فيه : فلانة قريبة منى ويجوز فى الثانى فيقال : فلانة قريبة وقريب منى فى المكان ويصح أن يكون تذكير (قريب) المخبر به عن (رحمة) لإضافة (رحمة) إلى الله تعالى . وكون الرحمة قريب من المحسنين لأن الإنسان فى كل ساعة من الساعات فى إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة ، وإن كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينهم وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان « وهو الذى يرسل الرياح» عطف على ماقبله ، والمعنى : إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وهو الذى يرسل الرياح « بشرا بين يدى رحمته » أى متفرقة قدام المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا وقرىء « بشرا » أى مبشرا وسكون الشين أى مبشرا « حتى إذا قلت » أى حملت الرياح « سحابا ثقالا » أى بالمطر يقال : أقل فلان الشىء إذا حمله ، واشتقاق الإقلال من القلة ، فإن من يرفع شيئا يراه قليلا « سقناه » أى السحاب ، والسحاب جمع سحابة وهو الغيم وفيه ماء ، أو لم

يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء «لبلد ميت» أى لا نبات به «فأنزلنا به» أى البلد أو السحاب «الماء فأخرجنا به» أى بالبلد أو السحاب بذلك الماء لأن إنزال الماء كان سببا لإخراج الثمرات «من كل الثمرات» أى من كل أنواعها، قال الأزهرى: قال الليث بن سعد: البلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خال أو مسكون، والطائفة منها بلدة والجمع بلاد «كذلك» أى مثل هذا الإخراج «نخرج الموتى» أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودرس آثارهم «لعلكم تذكرون» أى لكى تعتبروا وتذكروا. والخطاب لمنكرى البعث، يقول: إنكم شاهدتم الأشجار وهى مزدهره مورقة مثمرة فى أيام الربيع والصيف، ثم أنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأوراق والثمار، ثم أن الله تعالى أحياها مرة أخرى، فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على أن يحيى الأجساد بعد موتها «والبلد الطيب» أى والأرض الكريمة التربة السهلة السمحة «يخرج نباته بإذن ربه» أى بمشيئته وتيسيره، عبر بها عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنها وقعت فى مقابلة «والذى خبث» أى والبلد الذى خبث أرضه فهى مسبخة «لا يخرج» نباته «إلا نكدا» أى عسرا بمشقة وكلفة، قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فشبه المؤمن بالأرض الطيبة وشبه نزول القرآن على قلبه بنزول المطر على الأرض الطيبة، فإذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار، فكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهر منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة، وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التى لا ينتفع بها وإن أصابها المطر، فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده إلا عتوا وكفرا، وإن عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها فى الآخرة، وقيل: هو مثل ضربه الله لآدم وذريته كلهم، منهم طيب ومنهم خبيث «كذلك» أى كما بينا ما ذكر «نصرف» أى نبين «الآيات» الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية وحجة بعد حجة «لقوم يشكرون» نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بسماع القرآن.

٥٩ — لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

٦٠ — قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٦١ — قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ .

٦٢ — أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٦٣ — أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

٦٤ — فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

فى هذه الآيات الست الكريمة ذكر لقصة نوح عليه السلام ، ليعتبر بها المشركون والجاحدون ، ولما ذكر الله عز وجل ، وتبارك وتعالى فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته الدالة على التوحيد وعلى ربوبيته ، وأقام الأدلة القاطعة على صحة البعث بعد الموت ـ أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع أممهم فقال : يذكر قصة نوح « لقد » جواب قسم محذوف تقديره والله لقد « أرسلنا نوحا » عليه السلام « إلى قومه » وهو أول نبى بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نجارا ، بعثه الله تعالى إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : بعث وهو ابن مائة سنة ، وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة .

وقد نشأ نوح بين قوم يعبدون الأصنام فاجتباه ربه وخصه بالرسالة والنبوة

وأوصاه بأن يدعو قومه لعبادة الله ونبذ الأصنام التى كانوا عليها عاكفين ، فخرج عليهم نوح يدعو إلى الإيمان بالله ، ودخل إلى أنديتهم وندد بأوثانهم فانهالوا عليه ضربا وجيعا وجروه برجله وألقوه بعيدا ، ورموه بأنه كاذب فى دعواه وأنه ساحر ماكر ، وكانوا كلما أمعن فى دعوته ازدادوا عتوا وتمردا واستكبارا ، فاشتكى نوح إلى ربه عجزه وقلة حيلته وما يلاقى من قومه من العنت قال يارب : إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ولما تمادى الناس فى كفرهم واشتد نفورهم من النصائح والعظات لجأ نوح إلى مناجاة ربه فبسط يديه وقال : رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . فأوحى الله إليه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . وأوحى الله إلى نوح أن يعمل سفينة تحمله هو وأهله ومن آمن معه من قومه ، فأعد آلات النجارة وأعانه أولاده ومن آمن معه على صنعها ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، فلما جهز السفينة أوحى الله إليه أنه قد دنا هلاك قومك ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم . وفاضت عيون الأرض وهطلت أمطار السماء ، وجمع نوح قومه الذين آمنوا حول السفينة وقال لهم : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، وكانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . ولبثوا فى السفينة ماشاء الله لهم أن يلبثوا حتى ابتلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وغاض الماء واستوت السفينة على جبل الجودى وقال الله لنوح ومن معه : اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وعمر نوح ألف سنة إلا خمسين عاما .

«فقال» نوح بعد إرساله لقومه : «ياقوم اعبدوا الله» أى اعبدوه وحده لقوله تعالى «مالكم من إله غيره» وأنه الذى يستحق العبادة لاغيره «إنى أخاف عليكم» إن لم تقبلوا ما أمر به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته «عذاب يوم عظيم» هو يوم القيامة أو يوم نزول الطوفان وإهلاكهم فيه ، وقال (أخاف) على الشك وإن كان متيقنا من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به ،لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به، أيعاجلهم أو يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة «قال الملأ من قومه» أى الأشراف منهم فإنهم يملأون العيون منظرا «إنا لنراك فى ضلال» أى خطأ وزوال عن الحق «مبين» أى بين «قال» نوح مجيبا لهم «يا قوم ليس بى ضلالة» أى ليس بى شىء مما تظنون من الضلال ، والضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كما لو قيل «ألك تمر» ؟ فقلت : مالى تمرة ، فقد بالغ فى النفى كما بالغوا فى الإثبات وقوله تعالى «ولكنى رسول من رب العالمين» استدراك باعتبار مايلزمه وهو كونه كأنه قال : ولكنى على هدى فى الغاية لأنى رسول الله «أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم» والنصح إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه ويقال: نصحته ونصحت له كما يقال:شكرته وشكرت له ، وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح مقصودا بها جانبه لاغير ، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسوله ، وقيل:حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه ، وقال بعض المفسرين : الفرق بين البلاغ لنصيحة الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعلمهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوحى الله تعالى بها عليه، وأما النصيحة فهى أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه «وأعلم من الله مالا تعلمون» أى من صفات الله وأحوال قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لايرد عن القوم المجرمين «أو عجبتم» الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف أى كذبتم وعجبتم «أنجاكم» أى من أن جاءكم «ذكر» أى موعظة «من ربكم على رجل»

أى على لسان رجل « منكم » من جنسكم أو من جملتكم تعرفون نسبه ، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، يعنون إرسال البشر، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة «لينذركم» أى لأجل أن ينذركم عاقبة الكفر والمعاصى « ولتتقوا » أى ولأجل أن تتقوا الله «ولعلكم ترحمون» بالتقوى إن وجدت منكم ، لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل مالا ينبغى ، والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة « فكذبوه » أى نوحا « فأنجيناه والذين » آمنوا «معه» من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة- بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث وستة ممن آمن به «- فى الفلك » أى والذين استقروا معه فى الفلك ، أو أنجيناهم فى السفينة من الطوفان « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » بالطوفان « إنهم كانوا قوما عمين » أى عمى القلوب عن الحق غير مستبصرين يقال: رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر .

هـذه قصة نوح أبى البشر بعد آدم عليه السلام ، وفى العهد القديم ذكر لنوح ، ففى سفر التكوين الإصحاح السادس ورد ذكر لنبوته ودعوته لقومه وشركهم ولصنع السفينة ، وفى الإصحاح السابع « قال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك ، ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ سبعة سبعة ذكرا وأنثى، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكرا وأنثى ، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض » ، ثم يقول : « وكان الطوفان أربعين يوما » .. ثم يذكر انتهاء الطوفان ، وخروج نوح وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه وكل الحيوانات التى معه ، فى الإصحاح الثامن ، وفى الإصحاح التاسع يقول: « وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض - وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث ، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض ، وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما . . وعاش نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة ، فكملت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات » .

هذا هو الربع السابع من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن من الأصول ما يلي :

١ — تسجيل حوار أهل الأعراف مع جماهير المشركين وزعمائهم فى الآخرة ، وحوار أهل النار مع أهل الجنة ، وطلبهم منهم الماء والطعام ، ورد أهل الجنة عليهم بأن الله حرم هذه الخيرات على الكافرين ، ووصف القرآن الكريم هؤلاء الكافرين بصفات جامعة ؛ منهم أنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وأنهم غرتهم الدنيا عن الآخرة ، وبشرهم الله عز وجل ، أو قل أنذرهم بأن ينساهم فى الآخرة ، كما نسوا لقاء الله وحسابهم ، وبما أشركوا بالله وجحدوا آياته البينات ، مع أن الله عز وجل قد أنزل على رسوله كتابا مفصلا على علم هدى ورحمة للمؤمنين .

٢ — المشركون إذا كانوا يرتابون فى صدق القرآن الكريم ، وينتظرون أن يقفوا موقف اللاهى منه ، ولا يحركون ساكنا إلا يوم يأتيهم تأويله ، فسيأتيهم صدقاً وحقاً ، وسوف يندمون على ما فعلوا ، ويعترفون بالحقيقة ، وسوف يطلبون الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فلا يجدون لها من أثر . .

٣ — تصوير مظاهر قدرة الله عز وجل فى السماء والأرض ، وطلب عبادته حق عبادته ، وإقامة الدليل من تصريف الله للرياح وجمع السحب وإنزال المطر وسقى الأرض وإحيائها بالنبات بعد موتها ويبسها على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى ، وعلى بعث الخلق ، وعلى النشور والحساب .

٤ — تمثيل المؤمن بالبلد الطيب يخرج نباته سهلا بإذن الله دون عناء ، وتمثيل الكافر بالبلد النكد الذى لا يخرج نباته إلا بصعوبة ونكد شديدين .

٥ — ضرب الأمثال للمشركين ليعتبروا ويتعظوا وتذكيرهم بقصة قوم نوح وعنادهم وكفرهم وإغراق الله لهم بالطوفان ونجاة نوح والمؤمنين معه .. وكذلك مصير الكافرين ، لا يعصمهم من عذاب الله عاصم .

الربع الثامن

٦٥ — وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

٦٦ — قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

٦٧ — قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٦٨ — أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ .

٦٩ — أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٧٠ — قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٧١ — قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

٧٢ — فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

فى هذه الآيات الكريمة يذكر الله عز وجل قصة نبي الله هود مع قومه عاد ، وكيف كفروا برسالة نبيهم فأهلكهم الله ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد سكنت أمة عاد فى الجانب الشرقى من بلاد العرب بين عمان وحضرموت، وكانوا يعبدون الأصنام ولهم ملك عظيم السلطان ، فولد بينهم هود ونما واشتد عوده ، حتى بلغ مبلغ الرجال، فأوحى الله إليه بالنبوة وأمره بدعوة قومه إلى نبذ الأصنام والتوجه إليه بالتوحيد والعبادة . . فذهب إليهم فى عيدهم وقد جلس ملكهم على سريره ومن حوله أمراؤه وجنده وأشراف الناس ، فلما توسطهم قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ، ودعوا الأوثان فإنها آفة الضلال وهى التى أغرقت قوم نوح وما أنتم بأحسن منهم ؛ فاستدناه الملك وسأله أن يصف لهم ربه ، فقال : ليس كمثله شىء . فقال : وماذا تقول فى هذه الأمة العظيمة ؟ أيقدر إلهك عليها مع قوتها ؟ فقال هود : أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وفى الغد عاد إليهم هود من جديد وجعل يبذل النصح والإرشاد وينذرهم بعذاب أليم إذا أصروا على كفرهم ، فكذبوه وسبوه ، فغضب منهم ودعا الله أن يبتليهم بعذابه فابتلى الله نساءهم بالعقم فلم تحمل امرأة منهم ؛ ففزعوا إلى الملك فأمرهم بأن يحملوا القرابين إلى أوثانهم فلم يجد عملهم شيئاً ، وعاد هود إليهم بالموعظة الحسنة وأشار عليهم أن يلجأوا إلى الله فهو وحده الذى يدفع السوء عنهم ، فانهالوا عليه ضرباً موجعاً حتى أسالوا دماءه ، وقالوا له : إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ؛ قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة . فلما ضاقت أنفسهم به وملوا مواعظه ودعاءه قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، وعاد القوم إلى النيل منه ومن بدنه بالعذاب وقالوا : يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ،

فقال لهم : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ . وخرج من بينهم ودعا الله أن يبتليهم بالقحط والجدب فأمسك الله عنهم المطر فأجدبت أرضهم ولم تنبت زرعا وماتت أنعامهم، وأقاموا تحت هذا البلاء بضع سنين فضاق العيش بهم واشتد الكرب عليهم ، وعاد هود إليهم يعظهم لعل الله يرفع عنهم تلك النازلة ، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة ، فأرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، فلما رأوه قالوا : هذا عارض ممطرنا . . فقال لهم هود : بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فخرجوا من ديارهم يستقبلونها ، وقالوا لهود ساخرين : ستعلم يا هود من أشد منا قوة وبطشا ؟ فثارت عليهم الرياح هوجاء عاصفة ، فلم تبق على الأرض شيئا إلا نسفته نسفا ، واستمرت سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فلم يبق من قوم هود أحد إلا قتلته الريح ، ونجا هود والذين آمنوا معه .. يقول الله تعالى فى هذه القصة فى تلك الآيات الكريمة .. « وإلى عاد » أى وأرسلنا إلى عاد وهو عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وهى عاد الأولى « أخاهم هودا » أى أخاهم فى النسب لا فى الدين ، وهو هود بن عبد الله بن رباح ، من إرم بن سام بن نوح عليه السلام ـ كما قيل . . واختلف فى سبب الأخوة من أين حصلت ؟ على وجهين :

الأول ، قال الزجاج : إنه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ، ويكفى هذا القدر فى تسمية الأخوة ، والمعنى : إنا أرسلنا إلى عاد واحداً من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ، ولم يبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن .

والوجه الثانى أن أخاهم بمعنى صاحبهم ، والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم ، وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن ، والأحقاف الرمل الذى بين عمان وحضرموت « قال يا قوم اعبدوا الله » أى وحدوه ولا تجعلوا معه إلها

آخر « ما لكم من إله غيره » وجملة (قال يا قوم) على تقدير سؤال سائل، أى ماذا صنع هود مع قومه ؟ فقال الله عز وجل : قال يا قوم الخ ، فأخبر الله تعالى عنه بقوله : قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره « أفلا تتقون » الله أى تخافون عقابه فتؤمنون ، ولما كانت هذه القصة مسبوقة بقصة نوح وقد علم ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ، ولما لم يكن قبل واقعة نوح شىء ـ حسن تخويفهم من العذاب هناك : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم « قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة » أى فى حمق وجهالة وضلالة عن الصواب ، وقال قوم نوح « إنا لنراك فى ضلال مبين » وقوم هود « إنا لنراك فى سفاهة » لأن نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة فى أرض ليست فيها من الماء شىء قال له قومه « إنا لنراك فى ضلال مبين » حيث تتعب فى إصلاح سفينة فى هذه الأرض ، وأما هود عليه السلام فإنه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا « إنا لنراك فى سفاهة » . . « وإنا لنظنك من الكاذبين » أى فى ادعائك أنك رسول من رب العالمين « قال » هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه « يا قوم ليس بى سفاهة » أى ليس الأمر كما تزعمون أن بى سفاهة « ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى » أى أؤدى إليكم ما أرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه « وأنا لكم ناصح » أى فيما آمركم من عبادة الله تعالى « أمين » أى مأمون على تبليغ الرسالة وأداء النصح ، والأمين الثقة على ما اؤتمن عليه ، وقال نوح : وأنصح لكم بصيغة الفعل ، وقال هود : وإنا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل ؛ لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة ، وكان نوحُ يدعو قومه ليلا ونهاراً كما أخبر الله تعالى عنه بقوله « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً » ، فلما كان ذلك من عادته ذكر بصيغة الفعل فقال : وأنصح لكم ، وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال « وأنا لكم ناصح أمين » وفعل هود ذلك لأنه

كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ، ومقصوده الرد عليهم فى قولهم «وإنا لنظنك من الكاذبين » فوصف نفسه بالأمانة وأنه أمين فى تبليغ ما أرسل به من عند الله ، وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه فى موضع الضرورة إلى مدحها « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » وفى إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقالتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة ، وهكذا ينبغى لكل ناصح « واذكروا نعمة الله تعالى عليكم « إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » أى خلفتموهم فى الأرض أو جعلكم ملوكا فى الأرض من رمل عالج ـ وهو موضع بالبادية بها رمل ـ إلى شجر عمان عند ساحل البحر بين عمان وعدن « وزادكم فى الخلق بسطة » أى طولا وقوة « فاذكروا آلاء الله » أى أنعمه أى اعملوا بما يليق بذلك الإنعام ، وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام « لعلكم تفلحون » أى تفوزون بالنعيم المقيم فى الآخرة « قالوا » أى قوم هود مجيبين له « أجئتنا » ياهود « لنعبد الله وحده ونذر » أى نترك « ما كان يعبد آباؤنا » أى من الأصنام استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والإعراض عما أشرك به آباؤهم ، ومعنى المجيء فى أجئتنا إما لأن هودا كان معتزلا عن قومه كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم بحراء قبل البعثة ، فلما أوحى الله تعالى إليه جاء قومه يدعوهم ؛ أو يريدون به الاستهزاء لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجيء الملك .. أو أن الكلام على المجاز ، كما تقول : ذهب يشتمنى ـ ولا يريد حقيقة الذهاب « فأتنا بما تعدنا » أى من العذاب « إن كنت من الصادقين » أى فى قولك إنى رسول الله « قال » هود مجيبا لهم « قد وقع عليكم » أى نزل عليكم « من ربكم رجس » أى عقاب « وغضب » أى سخط « أتجادلوننى فى أسماء سميتموها » أى وصفتموها « أنتم وآباؤكم » أى من عند أنفسكم ، والاستفهام للإنكار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة فعبدوها من دون الله « ما نزل الله بها » من عبادتها « من سلطان » أى حجة وبرهان ، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد

للكل « فانتظروا » أى نزول العذاب بسبب تكذيبكم لى « إنى معكم من المنتظرين ، ذلك فأرسلت عليهم الريح العقيم «فأنجيناه » أى هودا « والذين معه » أى من المؤمنين « برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا » أى استأصلناهم « وما كانوا مؤمنين » عطف على كذبوا ، روى أن قوم هود كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى هودا فكذبوا وازدادوا عتوا فأمسك الله تعالى القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس حينئذ مسلمهم وكافرهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج فجهزوا إلى الحرم مرثد بن سعد فى سبعين من أعيانهم ، وكان بمكة إذ ذاك العمالقة وسيدهم معاوية ابن بكر ، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر ، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا إليه أهمه ذلك واستحى أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فدس عليهم مغنية تغنيهم بشعر فى وصف قحط قومه ، فأزعجهم ذلك ، وقال لهم معاوية : خلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لاتسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله تعالى سقاكم وأظهر إسلامه ، فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لايقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال مرثد : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاث ، بيضا وحمرا وسودا ، ثم ناداه مناد من السماء يامرثد : اختر لنفسك ولقومك. فقال: اخترت السوداء فإنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا به ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه وأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا . يروى أن النبى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذا هلك قومه هاجر والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا ، وروى عن على رضى الله تعالى عنه أن قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر، وقال : بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا: قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل فى تلك البقعة . .

٧٣ — وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٧٤ — وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

٧٥ — قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ .

٧٦ — قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ .

٧٧ — فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

٧٨ — فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ .

٧٩ — فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ .

فى هذه الآيات الكريمة السبع ذكر لقصة صالح وقومه ثمود ، وقد عاشت أمة ثمود فى الشمال الأوسط من جزيرة العرب بواد يدعى وادى القرى إلى الشمال من المدينة المنورة ، ويمتد شمالا من الحجاز إلى أطراف بلاد الشام ، وكانوا يتخذون بيوتا ينحتونها فى الصخور والجبال ، وكانوا قد انتحلوا عبادة الأوثان

كأسلافهم قوم هود. فعاب عليهم عقلاؤهم ليكفوا عن عبادة الأوثان وذكروهم بما عوقب به قوم هود من تدمير أوطانهم وما فعلت بهم الريح العاصفة ، فكانوا يعترضون بأن قوم هود لم يتخذوا بنيانهم من صميم الصخر كما ينحتون ، وإنما كانوا يبنونها على الأحقاف وهى الرمال التى لا بقاء لها مع الرياح العاصفة ، واجتمعوا إلى ملكهم ليتخذ لهم آلهة كما كان يعبد قوم عاد وقوم نوح من قبل ، وظهر بينهم صالح وقد بعثه الله نبيا فى قومه ، فدعاهم إلى عبادة الله والكف عن الأوثان، وضرب لهم الأمثال بمن نزلت بهم عقوبة الله من الأمم التى سبقتهم فقالوا ياصالح : لن نؤمن لك حتى تأتينا بآية من ربك فقال: ما الذى تريدون؟ قالوا : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة نؤمن بك ونعلم أنك صادق ولكن يكون لبنها لنا ولا ترعى فى مراعينا بل من رؤوس الجبال وبطون الوديان ، ويكون الماء لنا يوما ولها يوما ، فقال : إن الله مجيبكم إلى ماطلبتم ولكنى أحذركم أن يرميها أحدكم بحجر أو سهم أو يمنعها من الشرب هى أو فصيلها، وأخذ عليهم المواثيق ، ثم قام فصلى ودعا الله فاضطربت الصخرة وخرجت منها ناقة ومن ورائها فصيلها . ولبثت الناقة بين القوم فترة من الزمن تأكل من الوديان وتشارك القوم فى مائهم . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فبثوا فى أمتهم عزمهم على عقر الناقة وندبوا منهم رجلا ليعقرها ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر وأجهز عليها الناس فذبحوها هى وفصيلها وتقاسموا لحمهما ، وعلم صالح بما فعل قومه فأنذرهم بعذاب من الله واقع بهم لامحالة : فقالوا له: لقد أنذرتنا بالعذاب منذ بعيد ومانرى شيئا مما تزعم، فقال لهم: تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، وانقضت الأيام فابتلاهم الله فزلزلت بيوتهم وقصورهم حتى باتوا جاثمين وأصبحوا أثرا بعد عين، ونجا صالح والذين آمنوا معه ، وخرج من أرضهم ولحق بفلسطين حتى أتاه اليقين .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة السبع «وإلى ثمود» أى وأرسلنا إلى ثمود ، وهى قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود ابن غابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام كما يروى ، وكان مسكنهم الحجر

بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، أخاهم صالحا ، أى أخاهم فى النسب لا فى الدين ،قال، لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم ،ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أى فلا يستحق أن يعبد سواه ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، أى معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى وصدق ماأقول ، وما أدعو إليه من عبادة الله تعالى ؛ ثم فسر تلك البينة بقوله ،هذه ناقة الله لكم آية ، أى علامة على صدقى، وأضيفت البينة إلى الله تعالى تعظيما لها وتفخيما لشأنها كما يقال: بيت الله . ولأنها جاءت من عند الله تعالى بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية ، فذروها ، أى اتركوها ، تأكل فى أرض الله ، أى العشب فليست الأرض لكم ولا مافيها من النبات من إنباتكم ، ولا تمسوها بسوء ، أى بشىء من أنواع الأذى لا بعقر ولا بغيره (فيأخذكم عذاب أليم) أى بسبب أذاها ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء ، أى فى الأرض ، من بعد عاد ، أى أن الله تعالى أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الأرض وتعمرونها ، وبوأكم ، أى أسكنكم وأنزلكم ، فى الأرض ، أى أرض الحجر ، تتخذون من سهولها قصورا ، أى تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصور إنما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين غالبا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، أى وتنقبون فى الجبال البيوت . وكانوا فى الصيف يسكنون بيوت الطين ، وفى الشتاء بيوت الجبل ،فاذكروا آلاء الله ، أى فاذكروا نعم الله عليكم واشكروه عليها فإنكم منعمون مرهفون بمساكن فى الصيف ومساكن فى الشتاء ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، والعيث أشد الفساد ؛ وقال قتادة : معناه لاتسيروا فى الأرض مفسدين . وقيل : أراد به النهى عن عقر الناقة ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، أى تكبروا عن الإيمان ، للذين استضعفوا ، أى للذين استضعفوهم واستذلوهم ، لمن آمن منهم ، بدل من الذين استضعفوا ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، أى أن الله أرسله إلينا وإليكم ، قالوا ذلك على الاستهزاء ، قالوا ، أى الضعفاء ، إنا بما أرسل به ، أى صالح من الدين والهدى ، مؤمنون ، أى مصدقون ، قل ، الملأ ، الذين استكبروا ، عن

أمر الله تعالى والإيمان به وبرسوله صالح عليه السلام « إنا بالذى آمنتم به كافرون » أى جاحدون متكبرون « فعقروا الناقة » أى عقرها رجل منهم اسمه قدار بأمرهم، فأسند العقر إليهم ، والعقر قطع عرقوب البعير ، ثم جعل النحر عقرا فإنه قتلها بالسيف ، وناحر البعير يعقره ثم ينحره « وعتوا عن أمر ربهم » أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه وكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام «وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا » أى من العذاب « إن كنت من المرسلين » أى إن كنت تزعم أنك رسول الله فإن الله ينصر رسله على أعدائه ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مكذبين فى كل ماأخبر به من العذاب « فأخذتهم الرجفة » أى الزلزلة الشديدة من الأرض والصيحة من السماء « فأصبحوا فى دراهم جاثمين » أى باركين على الركب ميتين ؛ روى أن عاداً لما هلكت عمرت ثمود بلادهم وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا عمارا طوالا حتى أن الرجل كان يبنى البيت المحكم فينهدم فى حياته فينحتون البيوت فى الجبال، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعثوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأصنام ، فبعث الله تعالى إليهم صالحا عليه السلام من أشرافهم غلاما شابا ، فدعاهم إلى الله تعالى حتى كبر لايتبعه إلا القليل المستضعفون ، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التحذير والتخويف سألوه آية ، فقال لهم : أى آية تريدون؟ فقالوا : تخرج معنا إلى عيدنا فى يوم معلوم لهم فى السنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا ، فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعنا ، قال لهم صالح : نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم وخرج معهم صالح ودعو أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم مشيرا إلى صخرة فى ناحية من الجبل: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة فان فعلت ذلك صدقناك ، فأخذ صالح مواثيقهم: لئن فعلت لتؤمنن ولتصدقن، فقالوا نعم، فصلى ودعا ربه فتحركت الصخرة وانشقت وخرج منها ناقة عشراء، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح : هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانوا يحلبون ما شاؤا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون ، وكانت تقيم زمن الصيف

بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه وتشتو أى تقيم زمن الشتاء ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان منهم فعقروها واقتسموا لحمها ودخل فصيلها صخرة فلم يقدروا عليه فقال لهم صالح: تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم محمرة واليوم الثالث ، وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب ، فلما كان اليوم الرابع واشتد الضحا أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ، وقال صلى الله عليه وسلم لعلى : أتدرى من أشقى الأولين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : عاقر ناقة صالح عليه السلام « فتولى » أى أعرض صالح « عنهم » أى انصرف عنهم بعد هلاكهم بالعذاب ، وقيل : إنه تولى عنهم وهم أحياء قبل هلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء ، والصحيح أنه بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم ؛ فقال عمر يا رسول الله : تكلم أمواتا قد جيفوا ؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون ، وقيل : إنما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجرون عن مثل تلك الطريقة ، وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت ، وروى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار ، وروى أنه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم ، وتوفى صالح بمكة ـ على ما قيل ـ وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة .

٨٠ — وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ .

٨١ — إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

٨٢ — وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

٨٣ — فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

٨٤ — وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

فى هذه الآيات الخمس ذكر للوط وقومه وهلاك الله لهم .

وقد جاء ذكر قصة لوط فى سفر التكوين من العهد القديم ، ففى الإصحاح الثالث عشر ذكر للوط ، وأمواله الكثيرة ومخاصمته لإبراهيم ، وأنه اختار بسبب ذلك دائرة الأردن ، ولهذا دخل لوط من بيت المقدس ، واعتزل الواحد الآخر ، إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط سكن فى مدن الدائرة ، ونقل خيامه إلى سدوم ، وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جدا ، وكان لوط ابن أخى إبراهيم كما فى الإصحاح الرابع عشر ، وفى الإصحاح التاسع عشر ذكر لاستضافة لوط للملائكة ، وتجمع قومه على بابه مطالبين بالرجلين ، وما أمرت به الملائكة لوطا من الخروج بأهله بعيدا عن سدوم ، وأن لا ينظر إلى ورائه ، وأن يهرب إلى الجبل لئلا يهلك . . وأمطر الرب على سدوم كبريتا ونارا ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح « ولوطا » أى وأرسلنا لوطا ابن أخى إبراهيم « إذ قال لقومه » أى وقت قوله لهم ، وقيل معناه : « واذكر لوطا » ويبدل منه « إذ قال لقومه » وهم أهل سذوم[١] ، وكان

(١) بالسين المفتوحة والذال فى رواية الأزهرى وبالدال فى رواية غيره .

لوط عليه السلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام ، نزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين ، وأنزل لوطا الأردن ، فأرسله الله تعالى إلى أرض سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله « أتأتون الفاحشة » أى أتفعلون الفاحشة ، وهى إتيان الرجال من دون النساء « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » أى ما فعلها أحد قبلكم ، وبخهم أولا بإتيان الفاحشة ثم باختراعها ، فإنه أسوأ « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم » أيها القوم « قوم مسرفون » أى مجاوزون الحلال إلى الحرام ، وهذا إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات ، وإنما ذمهم الله تعالى وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل ، فإذا تركهن ووضع الشىء فى غير محله الذى خلق له فقد أسرف وجاوز الحدود واعتدى ، لأن وضع الشىء فى غير محله الذى وضع له إسراف ، وقوم لوط كانت بلادهم أخصبت بالزرع والإثمار ، وكانت لهم ثمار وحصاد لم يكن فى الأرض مثلهما « وما كان جواب قومه » له حين وبخهم على فعلهم القبيح وارتكابهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث « إلا أن قالوا » أى قال بعضهم لبعض « أخرجوهم من قريتكم » أى ما جاءوا بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، ولكنهم جاءوا بشىء آخر لا يتعلق بنصيحته وكلامه من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم « إنهم أناس يتطهرون » أى يتنزهون عن فعلكم وبتطهيرهم من الفواحش وافتخارا بما هم فيه من الفساد « فأنجيناه وأهله » أى من آمن معه « إلا امرأته » فإنها كانت تسر الكفر موالية لأهل سدوم « كانت من الغابرين » أى من الذين غبروا أى بقوا فى ديارهم فهلكوا ، وروى أنها أصابها حجر فماتت ، وإنما قال تعالى « من الغابرين » ولما يقل « من الغابرات » لأنها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الإناث ،

« وأمطرنا عليهم مطراً » أى نوعا من المطر عجيبا وهو مبين بقوله تعالى « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » أى قد عجنت بالكبريت والنار ، يقال : مطرت السماء وأمطرت ، وقال أبو عبيدة : يقال فى العذاب (أمطر) وفى الرحمة (مطر) ، وقيل : خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم « فانظر » أى أيها الإنسان « كيف كان عاقبة المجرمين » كما قال تعالى « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » .

٨٥ — وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

٨٦ — وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

٨٧ — وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

ثلاث آيات كريمات ، ابتدأ بها الله عز وجل قصة شعيب عليه السلام ، وستأتى بقية القصة فى مطلع الجزء التاسع بإذن الله تعالى ، قال الله تعالى فى قصة شعيب « وإلى مدين » أى وأرسلنا إلى ولد مدين بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام « أخاهم » فى النسب لا فى الدين « شعيبا » وكان يقال له

« خطيب الأنبياء » لحسن مراجعته قومه عليه السلام ، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان « قال » شعيب عليه السلام « ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة » أى معجزة تدل على صدق ماجئت به « من ربكم » أوجبت به عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به ، ولم تذكر معجزة له ، فقد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله تعالى « قد جاءتكم بينة من ربكم » ، ولابد لمدعى النبوة من معجزة تشهدله وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ، وقيل : أراد بالبينة الموعظة وهى قوله « فأوفوا الكيل والميزان » أى أتموها « ولا تبخسوا » أى تنقصوا « الناس أشياءهم » فطففوا الكيل والوزن ، يقال بخس فلان الكيل والوزن إذا نقصه وطففه ولم يقل المكيال والميزان كما فى سورة هود ، لأنه أراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمى مايكال به بالكيل أو أراد أوفوا كيل المكيال ووزن الميزان وإنما قال (أشياءهم) لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شىء فى مبايعتهم « ولا تفسدوا فى الأرض » أى بالكفر والمعاصى « بعد إصلاحها » أى بعد ماصلح أمرها وأهلها برسالات الأنبياء ، وبتبيين الشرائع «ذلكم » أى الذى ذكرت وأمرتكم به من الإيمان ووفاء الكيل والميزان وترك المظالم والبخس « خير لكم » أى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس « إن كنتم مؤمنين » أى مصدقين بما أقول لكم ، ومعنى « خير لكم » أى فى الإنسانية وحسن ما يتحدث به وجمع المال ؛ لأن الناس يصبحون أرغب فى متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والعدالة « ولاتقعدوا بكل صراط » أى طريق من طرق الدين « توعدون » أى تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك ، روى أنهم كانوا يجلسون على الطرقات فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا الذى تريدون كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ، وقيل: كانوا يقطعون الطريق على الناس أو يقعدون لأخذ المكوس «وتصدون» أى تصرفون الناس « عن سبيل الله » أى دينه « من آمن به » دليل على أن المراد بالطريق سبيل الحق وصراط الحق واحد قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما

فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » فكيف قيل « بكل صراط » ، والجواب أن صراط الحق وإن كان واحدا إلا أنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة وكانوا إذا رأوا واحدا يشرع فى شىء منها أوعدوه وصدوه « وتبغونها » أى تطلبون الطريق « عوجا » أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة عن الحق غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها . أو يكون تهكما بهم وأنهم يطلبون لها ماهو محال ، وأن طريق الحق لايعوج « واذكروا نعمة الله عليكم وآمنوا به » إذ كنتم قليلا فكثركم » أى كثر عددكم بعد القلة أو كثركم بالغنى بعد الفقر أو كثركم بالقدرة بعد الضعف ، وقيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط عليهما السلام فولدت ، فزاد الله تعالى من نسلها بالبركة والنماء فكثروا ونموا « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » قبلكم بتكذيبهم رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك ، وأقرب الأمم إليكم قوم لوط ، فانظروا كيف أرسل الله تعالى إليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسوله « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا » به أى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين : فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت برسالتى « فاصبروا » أى فتربصوا « حتى يحكم الله بيننا » أى بين الفرقتين فيعز المؤمنين أى المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم ، وفى هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين « وهو خير الحاكمين » أى لاحيف فى حكمه ولا معقب له ، لأنه تعالى منزه عن الجور والميل فى حكمه ، وإنما قال (خير الحاكمين) لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكما على سبيل المجاز . . وإن كان الله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة .

وبهذا ينتهى الربع الثامن من القرآن الكريم . وخلاصة ما اشتمل عليه من معانى وحكم وأصول :

١ — ذكر رسالة نبى الله هود إلى قومه عاد ، وتكذيبهم له ، ومجادلته إياهم ، ودفاعهم عن شركهم وتقليدهم لآبائهم وأجدادهم ، وإهلاك الله إياهم ،

وقطع دابر الشرك والمشركين . ومغزى هذه القصة إنذار الله عز وجل لمشركي مكة الذين وقفوا في وجه الرسول ورسالته .

٢ ـ ذكر رسالة الله إلى نبيه صالح لينذر قومه ثمود ، ومعجزة صالح وهي الناقة ، وكفر قومه به ، وعنادهم وعدم خضوعهم أو امتثالهم ، ولجاجهم في الشرك والضلال ، وعقرهم الناقة وإهلاك الله إياهم ، وفي هذا وعيد للمشركين المعاندين .

٣ ـ ذكر رسالة لوط إلى قومه ، وتحذيره لهم من إتيان الفاحشة ، وكفرهم برسالته ، ونجاة لوط ومن آمن معه ، وهلاك قومه .

٤ ـ ذكر رسالة شعيب إلى مدين وتحذيره لهم من تطفيف المكيال والميزان ووعيده لهم بالهلاك إن استمروا على اللجاج والكفر والطغيان .

وستكمل قصة شعيب في مطلع الجزء التاسع بإذن الله تعالى . وفي هذه القصة أيضا عبرة للمشركين الذين وقفوا في وجه الإسلام ورسوله الكريم . .

وبهذا ينتهي الجزء الثامن من القرآن الكريم .

نظرة عامة فى هذا الجزء

(١)

يشمل الجزء الثامن من القرآن الكريم أواخر سورة الأنعام وأوائل سورة الأعراف ، وقد سبق أن ذكرنا أن سورة الأنعام هى كلها فى حجاج المشركين بالحجة والدليل ، وفى الرد على مزاعمهم ومفترياتهم ، أما سورة الأعراف فهى كذلك تتناول دعوة المشركين إلى الإيمان برسالة محمد والإسلام، وتتناول ذكر قصص الأنبياء والرسل وكفاحهم فى أممهم فى سبيل تبليغ رسالة الله إلى الناس ، لما فى ذكر هذه القصص من العظة والعبرة .

وسورة الأعراف والأنعام مكيتان ، وقد سميت الأولى بالأعراف ،وهو اسم غريب غير مألوف جريا على مألوف سور القرآن فى أن تسمى بأسماء غريبة غير معهودة ، وقد أطلق عليها اسم الأعراف ، وأخذ هذا الاسم مما ذكر فى الآيات ٤٦ - ٤٩ - من السورة ، من حديث أهل الأعراف إلى أهل الجنة وإلى أصحاب النار فى الآخرة .. أما سورة الأنعام فقد أطلق عليها هذا الاسم الغريب لما سبق أن ذكرناه فى بيان ذلك فى ختام الكلام على سورة الأنعام فى هذا الجزء ..

(٢)

وفى هذا الجزء يذكر القرآن الكريم كثيرا من الأصول العامة التى تهتدى بها الأمم والأفراد فى الحياة .. وأهم هذه الأصول هى :

١ — فى الربع الأول من هذا الجزء يرد الله عز وجل على المشركين الذى أكثروا على محمد صلى الله عليه وسلم من طلب الآيات المؤكدة لنبوته ولرسالته ، وينعى الله عز وجل على المشركين شركهم وأباطيلهم وظنونهم وأوهامهم ، ويتناول الله عز وجل أحكام الذبح بشىء من البيان والتفصيل ، ثم يضرب الأمثال للمؤمنين والكافرين ، ويجعل الكفر موتا والإيمان حياة،

وهو كذلك حقا ، ويندد الله عز وجل إثر ذلك بزعماء المشركين وسادتهم ، ويقول « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ، ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم ، وما يشعرون » .

٢ — وفى الربع الثانى يذكر الله عز وجل أن للمؤمنين دار السلام عند الله فى الآخرة ، وأن الله هو وليهم بسبب أعمالهم الصالحة الطيبة . ثم يذكر مايكون بين أهل النار من حوار وجدل .. ويبين الله عز وجل قاعدة إلهية جليلة ، وهى أن الله عز وجل لا يدمر أمة من الأمم إلا بظلمهم وبعكوفهم على الشرك والضلال والبهتان ، وبجرمهم لرسالات السماء ، ويخاطب الله عز وجل المشركين خطابا بليغا جامعا ، خطابا فيه تهديد وفيه وعيد ، « قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .. ثم يذكر الله عز وجل شرك المشركين وجعلهم نصيبا من الحرث والأنعام مما خلق الله لآلهتهم ، ثم ينعى عليهم ما كانوا يعملون من وأد البنات ، ومن تحريمهم بعض الأنعام والحرث على الناس ، بحيث لا يطعمها إلا من يزعمون ، ومن تحريمهم ركوب بعض الأنعام ، ومن عدم ذكر اسم الله عليها عند ذبحها افتراء على الله ، ومن جعلهم بعض ما فى بطون الأنعام خالصا لذكورهم ومحرما على أزواجهم ، والبعض الآخر للذكور والإناث ، إلى غير ذلك مما افتروه من شعائر وشرائع ، هى كلها ضلال فى ضلال ، وبهتان فى بهتان وإثم فى إثم .

٣ — وفى الربع الثالث يذكر الله عز وجل مظاهر قدرته الباهرة فى الزرع والنبات والأنعام ، وينعى عليهم تحريمهم وتحليلهم وافتراءهم الكذب على الله ، وينص الله عز وجل على أنه إنما حرم على الناس الميتة والدم ولحم الخنزير ، وماذبح مما لم يذكر اسم الله عليه ، ثم يذكر ماحرمه على اليهود من كل ذى ظفر ، ومن شحوم البقر والغنم .. ويرد بعد ذلك على المشركين فى زعمهم الكاذب ، وقولهم الآثم .. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء .. وفى هذا الربع يقول الله عز وجل « ولا تسرفوا إنه

لا يحب المسرفين[١] » ، وفى سورة الأعراف يقول الله عز وجل : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين[٢] » ، وهنا نجد نهيا صريحا عن الإسراف ، لما يؤدى إليه الإسراف من الفقر ومن الترف أيضا ، والإنسان لاشك أنه يذم إذا قاد لنفسه الفقر ، أو إذا عاش عيشة الترف ، الترف الذى يؤدى إلى الفجور والفسق والإثم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[٣] » ، والترف دائما مهلكة للحضارة ، ومدمر لبناء الأمم ونهضاتها .

٤ — وفى الربع الرابع من هذا الجزء يضع الله عز وجل أصولا عامة يدعو إليها الناس كافة ، والمسلمين خاصة ، وهى من أصول الإسلام : ديننا الخالد الكريم ، وهذه الأصول العامة هى : تحريم الشرك ، وعقوق الوالدين ، ووأد البنات ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقربان الفواحش ، وقربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ رشده ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والعدل فى القول والعمل ، والوفاء بالعهد .. وهى أصول عامة يبنى عليها الإسلام ، صراط الله المستقيم ، ودينه الحكيم ، الذى أمرنا الله باتباعه وبترك اتباع العقائد والمذاهب الضالة الضارة .

والآية الأولى « قل تعالوا » جمعت أسمى الفضائل وأسباب الطمأنينة والمعاملة : فقد بدأت بالأمر بالعدل ، وهو ما ساد فى أمة إلا كان معه راحة القلوب ، وهدوء النفوس ، والأمن على الحقوق . ويتبعه اتساع العمران وسعادة بنى الإنسان . ولا يأبى العدل إلا كل منحرف النفس ممقوت بين الناس ، بل لا يستطيع من يأبى العدل أن يجهر بأنه يأباه ، وإنما يحتال لإظهار أن العدل فى جانبه ، متحملا لذلك بما يقدر عليه من الأسباب والتمويهات . وأردفه بالأمر بالإحسان ، لأن فيه فضيلة التطول ، وجمع القلوب المتفرقة ،

---

(١) بعض آية ١٤١ من سورة الأنعام .
(٢) بعض آية ٣١ من سورة الأعراف .
(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

وسد طريق الشيطان فى إفساد ذات البين . وكم للإحسان من آثار حسان :
فكم فض من مشاكل تعاصى على القضاء والقوة فضها ، وقرب قلوبا باعدت الخصومات بينها . ولقد يعود على المحسن بإحسانه أضعاف ما كان ينتظره بالمقاصة العادلة التى كان ينوى التمسك بها والتشدد فيها . ولكن لا تكاد نفس المحسن تطيب بالإحسان إلا إذا شعر بأنه متفضل متبرع ، وأنه لو تمسك بحقه لمكن منه . وفى هذه الحال يكون للإحسان أثره الصحيح ، وتجنى ثماره حقاً . ولقد اختص ذوى القربى بالتنصيص ، لأنهم أشد تطلعا إلى المعروف من ذوى قرباهم ، وأقوى طماعية . وربما كان هذا التطلع مدعاة إلى الإمساك من الطرف الآخر ، لأن الإحسان إذا صور بصورة الاستحقاق عادت النفوس إلى الاستمساك بالعدالة ، والميل إلى المشاحة ، كما نشاهده بين الأقارب.
فكانوا جديرين بتخصيصهم ، والتنصيص على الإحسان إليهم . ويجىء بعد هذا الأمر ، النهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، لأن النفوس التى تكون قد تحلت بالعدل والإحسان والرحمة ، تكون قد استعدت للتطهر من أدران الفحشاء والمنكر والبغى . ومن ذا الذى يهون عليه أن يضيع ثمرة إحسانه وقد ذاق لذته ، بتدنيس نفسه ثانية ، بارتكاب الفحشاء والمنكر ؟ ! ومن ذا الذى يرضى لنفسه الوقوع فى البغى وقد راضها على العدل والإحسان ؟ !
وإذا تأملت فى الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وعرفت أنها جاءت بعد قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » علمت ما فيها من حسن التربية ، واقتران النهى عن بعض ما تميل إليه النفوس من الخبائث ، بالامتنان بما أباح لها من الطيبات . ففى ذلك أكبر العون على استبدال الطيب بالخبيث .
فمن ذا الذى تطيب نفسه وقد مُكن من أمرين : أحدهما طيب نافع والآخر خبيث ضار ـ أن يجنح للضار الخبيث ، إلا إذا كان قد فقد قوة التمييز ، أو انحرفت إرادته فلا تميل إلا إلى الهاوية ؟ ! وقد فصل فى تضاعيف الشريعة ما حرم من الفواحش والخبائث ، فإذا هى مما يسلب المرء أعز نعم الله عليه ، فتراها ما بين

شرب خمر تذهب بعقل الرجل فتجعله شراً من البهيمة ؛ أو ميسر يضيع ماله فيجعله في أسوأ حالات الاحتياج ؛ أو زنى يضيع الأنساب ويلحق بالرجل مالا صلة له به ، فضلا عن تدنيس عرضه ، وانحطاط شرفه ؛ أو قتل عدوان يتلف الأرواح ويولد الشرور المستمرة . فلا تجد محرما حرم الله على عباده إلا وفيه من المضار ما لا قبل للناس باحتماله . ولو كان في ظاهره شيء من الخير المزيف عاجلا ، فلا يلبث أن يبرز منه الشر الكامن بصورة لا تحتمل . ومن أمثلة ذلك معاملة الربا التي استهان بضررها كثير من الناس ، لقصر نظرهم عما تعقبه من الخسائر الفادحة ، فتورطوا فيها ولم يعرفوا سوء مغبتها إلا بعد ما سد في وجههم طريق الخلاص من التردي في هاويتها العميقة ، فيعضون على أصابع الندم ، ولات ساعة مندم !

ثم يذكر الله عز وجل رسالة موسى بعد أن بين شريعة الإسلام وفصل أصولها ، ويعود إلى ذكر القرآن الكريم وإلى وصفه بأنه مبارك ، وأنه هدى ورحمة . . ويفيض الله عز وجل في توبيخ المشركين وقطع أعذارهم ، وفي إنذارهم بسوء المصير ، ويقرر الله عز وجل أن كل أحد سوف يجازى بعمله ، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ويتحدث عن الرسول العظيم وصدق إيمانه وتوحيده وإخلاصه لله رب العالمين ، لا شريك له ، وينفي عنه الشرك وعقائد الضلال ويقرر الله عز وجل الجزاء على الأعمال ، وأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإلى الله مرجع الناس جميعاً ، ومصير البشر كافة ، فينبئهم بما كانوا فيه يختلفون ، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات . . وبهذا تنتهي سورة الأنعام .

٥ — وفي الربع الخامس — وهو مطلع سورة الأعراف هذه السورة التي تخاطب المشركين ، وتنذرهم بمثل مصير الأمم الماضية التي كذبت برسلها وأنبيائها ، وأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، وأهلكها وبطش بها — في هذا الربع يمجد الله عز وجل شأن القرآن الكريم ، ويهدد الكافرين والمشركين ،

وينذرهم بمثل مصير الأمم البائدة وبالحساب على الأعمال ، وأولى هذه القصص التى ذكرت فى هذه السورة هى قصة آدم ، خلقه الله وصوره من تراب ، وأمر الملائكة أن تسجد له ، وما كان من إبليس حين عصى أمر ربه ، فلم يسجد لآدم ، فطارده الله من رحمته ، وأخرجه من جنته ، وغضب عليه غضبا شديداً ، ثم يذكر الله عز وجل وسوسة إبليس لآدم وحواء حتى أكلا من الشجرة التى حرم الله عليهما الأكل منها ، وتوبة آدم إلى الله وخروجه من الجنة . وهبوطه إلى الأرض ، ويذكر الله عز وجل بنى آدم بفضله عليهم حين هداهم إلى صنع الثياب وإلى وسائل الزينة المختلفة التى أرشدهم إليها . ويطالبهم بأن يلبسوا لباس التقوى فذلك خير لو يعلمون . ومعنى أن الله عز وجل أنزل على بنى آدم لباسا يوارى سوآتهم أنه أنزل الماء ، ومن الماء نبت النبات ، وأخذ منه القطن وسواه ، مما يصنع منه الثياب ، ويصح أن يكون معنى إنزال الثياب أو اللباس من عند الله أنه هدى الناس إلى صنعه ، وأرشدهم إلى اتخاذه .. ثم يحذر الله عز وجل بنى آدم من إغواء الشيطان حتى لا يقعوا فى حبائله ، كما وقع فى شراكه آدم أبو البشر لحكمة يعلمها الله عز وجل ، وهى عمارة الأرض وسكناها ، ويأمر الله عز وجل بالتزام العدل ، وبأداء الصلاة وبالإخلاص لله ، حتى يسعد المؤمن بإيمانه فى الآخرة ، ويشقى الكافر بكفره وشركه .

٦ — وأما الربع السادس ففيه يأمر الله عز وجل بنى آدم بقصد المساجد وأخذ الزينة لها لأداء الصلاة ويأمرهم بترك الإسراف فى الأكل والشرب ؛ ويبيح لهم زينة الله ، والطيبات من الرزق ، ويقرر أن الله عز وجل إنما حرم عليهم الفواحش والإثم والبغى بغير الحق والشرك بالله وافتراء الكذب على الله .. ويأمرهم باتباع رسالات الرسل ، ويحذرهم من نهاية الأمم الضالة ومن مثل مصيرهم ، ويذكر أحاديث أهل النار فى النار بعضهم مع بعض ، ويقرر النار عقابا للكافرين والجنة ثوابا للمؤمنين ، ثم يتحدث عن حوار أهل الجنة مع أهل النار .

٧ — وفى الربع السابع يذكر الله عز وجل حوار أهل الأعراف مع كل من أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ويذكر فضل الله على الإنسانية وعلى العرب بإنزال القرآن الكريم هاديا وبشيرا ونذيرا ، ويذكر مظاهر قدرته فى السماء والأرض والهواء ، ثم يذكر رسالة نوح إلى قومه وكفرهم بها وإهلاك الله لهم بالطوفان .. وهذه ثانى قصة من قصص هذه السورة الكريمة .

٨ — وفى الربع الثامن يذكر الله عز وجل رسالات هود وصالح ولوط وشعيب إلى أقوامهم ، وكفر الناس بهذه الرسالات ، وعقاب الله عز وجل لهم بإهلاكهم وإبادتهم دون رسلهم عقابا لهم ، وجزاء على ما قدموا من الشرك والكفر والبهتان وسوء القول والعمل .

(٣)

هذا هو الجزء الثامن من القرآن الكريم وهو كله حافل بالدعوة إلى الله ، وبالرد على مزاعم المشركين وافتراءاتهم الباطلة ، وبالدعوة إلى الله وإلى توحيده وطاعته على هدى وبصيرة من الأمر .

وهذا الجزء يحتوى على قصص الأنبياء وكفاحهم من أجل رسالاتهم : آدم أبى البشر ، ثم نوح ؛ ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب عليهم السلام .

ويحتوى كذلك على تذكير المشركين من العرب بمصارع أمم هؤلاء الأنبياء ، جزاء عادلا لكفرهم وشركهم وضلالهم ومقاومتهم لنور السماء ، وآدم أبو البشر هو البذرة الأولى لرسالات السماء ، وهو بدء الخلق ، وتذكره الكتب المقدسة ، ومنها العهد القديم كما فى سفر التكوين ، وقد أراد الله أن يعمر الأرض بالنوع الإنسانى فخلق آدم أبا البشر ، وتناسلت منه ذريته ، وعمرت بهم الحياة والأرض ، وفى التعبير عن إرادة الله عز وجل خلق آدم يقول القرآن الكريم فى سورة البقرة « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح

بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » ، وهذه هى إرادة الله عز وجل ، إرادته لخلق البشر ، ولعمران الأرض ، ولنشأة الحياة ، ولبعثة الرسل والرسالات ، هذه مشيئته تعالى أن يخلق الإنسان ويسكنه الدنيا ليعمر الأرض ويمشى فى مناكبها وينتشر نسله فى أرجائها ويستخرج خيراتها . . فلما خلق آدم أمر الله الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . فقال له ربه ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى، استكبرت أم كنت من العالين ، قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقتنى من طين فقال الله له : اخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . فسأل ربه أن يستبقيه فى الدنيا إلى يوم القيامة . فقال له ربه : إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، فقال إبليس : إنى سأبذل جهدى فى إضلال آدم وذريته، فقال الله له : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين .

وعلم الله آدم علوم السموات والأرض ومابينهما من الكائنات ثم عرضهم على الملائكة وقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين : قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال الله : ياآدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم قال الله لهم : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون . وخلق الله حواء من جنب آدم الأيسر من ضلعه وقال له: اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فقبل آدم وزوجه ماأمر الله به من تجنب تلك الشجرة ، فلما سمع إبليس أن الله أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنة وحذره من أن يقرب من شجرة واحدة فرح إبليس وقال : سأعمل على طرده هو وزوجته من الجنة . واختلس إبليس دخول الجنة والتقى بآدم وزوجه فجعل يستميلهما ويزين لهما القول بالباطل ، وقال لهما :مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وما زال يقسم لهما على صدقه حتى استجابا له وتناولا من ثمر تلك الشجرة وأكلا من سنابلها، فلما ذاقا من حب الشجرة كشفت لهما سوآتهما ، وسقط عن آدم لباسه الذى ألبسه الله إياه من

مطارف الجنة وعريت حواء من زينتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . أما إبليس فقد ولى هاربا واستخفى بعد أن فعل فعلته ، وأما آدم فقد أخرج هو وزوجته من الجنة ، واستترت حواء بورق من شجر الجنة وحجبت عن آدم فأصبح وحيدا حزينا عارى الجسد ، وقد جعل يده اليمنى على رأسه واليسرى على سوأته وتحدرت دموعه على خديه والتف به الملائكة وجعلوا يلومونه على نقض ما عاهد الله عليه ، فقال لهم: يا ملائكة ربى لا تلوموني على ما حدث منى فانه كان بقضاء الله ، فقد قال لكم إنه سيجعل فى الأرض خليفة قبل أن يخلقنى وأمر الله آدم وزوجه حواء وإبليس أن يهبطوا إلى الدنيا ،وقال لهم اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ،وقيل إن آدم هبط على جبل ببلاد الهند ، ولعل ذلك كان بجزيرة سيلان فى جنوب الهند فان بها قمة جبل تدعى قمة آدم . أما حواء فقد قيل : إنها هبطت بأرض الحجاز ، وفرق الله بينهما طويلا فلم ير أحدهما الآخر ، وكان على آدم حين هبط بعض أوراق من الجنة فذرتها الرياح فى بلاد الهند ، فقيل : إنها صارت معدنا للطيب بتلك البقاع ، وخلا آدم بنفسه يبكى على ما ابتلى به من محنة الطرد من جنة ربه ، والقرار بهذه الدنيا العريضة بغير أنيس ، فأقبلت عليه الوحوش والطيور وظل آدم محزونا لا تجف له عبرة ولا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله حتى هبط عليه جبريل وبشره بأن الله قد غفر له وتاب عليه . ومهد الله الوسيلة ليلتقى آدم بزوجه حواء . فلما اجتمعا هدأت نفس آدم وتبدلت وحدته أنسا وهناء وغبطة ، فكان أول متاع لأول زوجين على وجه الأرض ، وهداه تفكيره ورغبته الملحة إلى بناء بيت ليظله هو وأهله ، ثم تدرجت به الحاجة إلى حرث الأرض وحفر الآبار ، وحملت إليه من الجنة حبة القمح ليزرعها فصاح وقال : مالى ولهذا الحب الذى أخرجنى من الجنة ؟ فقيل له : هذا رزقك فى الدنيا وأنت الذى اخترته فى الجنة وسيكون غذاء لك ولذريتك . وحملت حواء ثم وضعت توأمين ذكرا وأنثى ، وكان بكرها هابيل وأخته ، ثم حملت

المرة الثانية فوضعت قابيل وتوأمته ، وتوالى الحمل والوضع ، وفى كل مرة كانت حواء تلد توأمين حتى كثروا وتناسلوا فكان الذكر الأول يتزوج من الأنثى من البطن الذى يليه ، فلما كثرت الذرارى وانتشروا فى أنحاء البلاد اختار الله آدم رسولا لذريته فى الأرض .

وقصة آدم فى سورة البقرة وردت بجميع خيوطها وألوانها وطيوفها ، ذكر فيها خلق آدم وتصويره ، ثم تعليمه الأسماء كلها ، ثم أمر الملائكة بالسجود له ، ثم عصيان إبليس وكفره ، ثم سكنى آدم الجنة ، ووسوسة الشيطان له ، وأكله من الشجرة وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، وتوبة الله عليه .. أما قصة آدم فى سورة الأعراف فقد ذكر فيها خلقه وتصويره ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وطاعتهم لأمر الله ما عدا إبليس الذى غضب الله عليه وطرده من رحمته ، ثم ذكر فيها كذلك سكنى آدم الجنة ، ونهيه عن الأكل من الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان له ولحواء ، وأكلهما من الشجرة ، وتوبتهما إلى الله... ولنوازن بين الأسلوبين فى قصة آدم : أسلوب سورة الأعراف (الآيات ١١ — ٢٧) ، وأسلوب سورة البقرة (الآيات ٣٠ — ٣٨) وذلك فى المعانى المشتركة بينهما :

١ — فى خلق آدم تقول سورة الأعراف فى إجمال شديد : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » ، والخطاب لآدم وحده ، أو لذرية آدم باعتبار النظر إلى خلق آدم .. أما سورة البقرة فتقول فى تصوير تفصيلى عجيب : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » .

٢ — تنفرد سورة البقرة بذكر تعليم آدم الأسماء كلها ، وعجز الملائكة عن معرفتها .

٣ - وفى سجود الملائكة لآدم تقول سورة البقرة : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ، أما

سورة الأعراف فتقول : «ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ، قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين ، قال : فبما أغويتنى لأقعدن لك صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال : اخرج منها مذءوما مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » .

٤ — وفى سكنى آدم الجنة تقول سورة البقرة : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » .

وتقول سورة الأعراف : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلك الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإلا تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » .
وتقول سورة طه : فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال . يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ،وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ؛ قال : اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى ؛ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ؛ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى »[1] . . ولو أردنا أن نوازن بين هذه الأساليب المختلفة فى تناول قصة خلق آدم لما وسعنا الكثير من الوقت والبيان ، فلنكتف بهذا القدر من العرض والشرح والإبانة . . وجميع هذه السور تذكر قصة أكل آدم من الشجرة ، واختلف المفسرون فى الشجرة هذه : أهى الحنطة أم التين أم غيرهما؟ وينفرد الشيخ عبد الحميد الخطيب صاحب التفسير المكى فى تفسيره بأن الشجرة المراد بها الجماع ، فيكون الأكل من الشجرة كناية عن العملية الجنسية ، نهى الله عز وجل آدم وحواء ، عن أن يمس أحدهما الآخر ، فوسوس لهما الشيطان ، ومس أحدهما الآخر لحكمة أرادها الله ، وهى عمران الكون ، فبدت لهما سوآتهما ، وأخذا يستران عورتيهما من ورق الشجرة إلى أن هداهما الله إلى صنع الثياب ولبسها . . وهذا قد يكون أمرا معقولا قريبا إلى الفهم وإلى بلاغة القرآن الكريم .

وفى هذا الجزء ذكر لرسالة محمد عليه السلام فى مواضع عديدة :

١ — قال الله تعالى : « وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون - ١٢٦ سورة الأنعام .

٢ — وقال : وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون -١٥٣ سورة الأنعام .

٣ — قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[2] .

---

(١) الآيات ١١٧ — ١٢٤ من سورة طه .

(٢) ١٦١ — ١٦٣ سورة الأنعام .

٤ — « قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد[١] » .

٥ — قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[٢] .

وفى هذا الجزء إشارات كثيرة إلى القرآن الكريم :

١ — يقول الله تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة[٣] .

٢ — كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون .

٣ — ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون[٤] .

(٤)

والموضوع الأول على أية حال من الأحوال لهذا الجزء هو الدعوة إلى التوحيد ، ومحاربة الشرك ، والرد على المشركين ، وتخويفهم من سوء المصير ، ومن مثل عاقبة الأمم الماضية .

ولقد كان المشركون قوة طاغية فى عصر نزول الرسالة المحمدية ، وكان الشرك فى كل مكان فى العالم ، حتى الديانات السماوية استحالت شرائعها الطاهرة إلى عقائد وثنية ، لذلك حارب القرآن الشرك والمشركين وقاوم ماشابه

---

(١) ٢٩ سورة الأعراف (٢) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .
(٣) ١٥٥ — ١٥٧ سورة الأنعام . (٤) الآية ٥٢ من سورة الأعراف .

الشرك من دعوات باطلة ، ورد على الذين لا يؤمنون بالغيب ، وعلى الذين ينكرون البعث فى قوة وشدة ووضوح حجة ، ورد على الذين ينكرون وجود الله كذلك .. والعجب العجيب ، والأمر الغريب أن يكون هناك من الناس من يتخيلون أن مظهر استقلال الرأى وحرية التفكير إنما هو فى جحود الإنسان كل ما لا يقع تحت حسه ، ولو صح ما يقولونه لوجب أن ينكروا كثيراً من الحقائق العلمية التى لا يمارى فيها إلا الجاهلون . ويكفى فى الرد على مثل هؤلاء ما قاله كاميل فلا مريون فى كتابه « الموت وغامضته » ، قال : « الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بحقيقة الواقع من الحوادث الوجودية ، فإن حواسنا تخدعنا عنها ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤاتى عقولنا عنها ببصيص من النور .

من أمثلة ذلك أننا لا نشعر بشىء من الحركات الهائلة للكوكب الذى نعيش عليه ، فإنه يظهر لنا ساكنا ذا أوضاع محدودة بالنسبة إلى فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ ، ومع هذا فإنه يسبح فى الفضاء بسرعة أكثر من مائة ألف كيلومتر فى الساعة فى تطوافه السنوى حول الشمس ، وهى نفسها تنتقل فى خلال اللانهاية السماوية بحيث إن خط سير الأرض لهذا السبب لا يكون خطا منحنيا مقفلا قط ، ولكن حلزونيا مفتوحا دائما . وإن كرتنا الهائمة على وجهها فى الفضاء لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت إلى اليوم . وفى الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة فى كل أربع وعشرين ساعة ، بحيث إن ما نسميه « فوق » فى ساعة من الساعات يكون « تحت » بعد اثنتى عشرة ساعة ، وإننا نجرى فى هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ أمتار فى الثانية فى خط عرض باريس ، و ٤٦٥ متراً فى خط الاستواء . هذا وكوكبنا الأرضى تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة ، فلا نشعر بواحدة منها حتى تمسنا من قرب ، كالمد والجزر للقشرة الأرضية ، وهى ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الأرضية دفعتين فى اليوم تحت أرجلنا إلى علو ٣٠ سنتيمترا ، ولا توجد أية علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الأمر مباشرة . ولولا وجود الشواطىء

لمـا أدركنا وجود المد والجزر فى الأقيانوس كذلك . وهل نشعر بالهواء الذى نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ إن سطح جسم الإنسان يحمل منه ما وزنه ستة عشر ألف كيلو جرام معادلا بمثله من الضغط الداخلى ، وما كان أحد يتخيل أن الهواء ثقيل قبل غاليليه ، وباسكال ، وتورسلى ، هذا ما يشهدنا إياه العلم ، ولـكن الطبيعة لا تشعرنا به . وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . فالـكهرباء تلعب فيه دورا لا ينقطع ، ولـكننا لا نشعر بها إلا وقت الأعاصير ، أى وقت اختلال التوازن بشدة . والشمس تبعث لنا على وجه الدوام بإشعاعات مغناطيسية تؤثر على بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الإبرة المغطسة مما لا تشعر به مشاعرنا ، ولـكن توجد أجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات . وأعيننا لا تدرك ما نسميه نورا إلا بوساطة ذبذبات الأثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة فى الثانية لونها أحمر متطرف ، وبين ٧٦٠ ترليون ذبذبة لونها بنفسجى متطرف ، والذبذبات البطيئة للأشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ ترليون موجودة ، وعاملة فى الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق الـ ٧٦٠ ترليون ذبذبة للأشعة الحرارية البنفسجية المعتمة ، ومع ذلك فهى غير مرئية لشبكية أعيننا . وأذننا لا تدرك ما نسميه (أصواتاً) إلا ابتداء من الذبذبة الثانية والثلاثين من الأثير فى الثانية للأصوات التى نسميها شـديدة ، حتى تصل إلى ستة وثلاثين ألف ذبذبة فى الثانية للنغمات الحادة ، وأنفنا لا يشعر بما نسميه (روائح) إلا عن قرب شديد ، وفى عدد محصور منها فقط ، ويختلف شم الحيوانات عن شم الإنسان . وغير هذا فإن الواقع أنه لا يوجد فى الطبيعة خارج حواسنا لا نور ولا صوت ولا رائحة . فنحن الذين وضعنا هذه الـكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا ، فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة ، ويوجد فى الفضاء فى وسط الليل من النور بقدر ما يوجد منه فى وقت الظهيرة . أعنى بهذا أنه توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الأثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية ، ولـكننا لا نتأثر بها ، فلا نراها لعدم انعكاسها علينا . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة

وليس هو بذى جلبة إلا بالنسبة لعصبنا السمعى . والروائح تحدث من جزئيات سابحة فى الهواء تؤثر على عصبنا الشمى . فهذا مبلغ ماتصل إليه قدرة حواسنا الثلاث التى تصلنا بالعالم الخارجى . وأما الحاستان الآخريان : الذوق واللمس فلا تتأثران إلا بالملامسة . وهذا شىء قليل ، وهو فى كل الأحوال لا يؤتينا بشىء من العلم بحقيقة الواقع ، فإنه يوجد حولنا من الذبذبات والحركات الأثيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية مالا نراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة ، وبديهة عقلية لا يمكن النزاع فيها . فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية لاترى ولا تلمس ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها .. فإذا تقرر وثبت بالدليل أن أعضاءنا الإدراكية لاتكشف لنا كل ماهو موجود ، وأنها قد تعطينا إدراكات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فضلا عن حركات الأرض وثقل الهواء والإشعاعات والكهرباء والمغناطيس ، قلنا إذا تقرر ما ذكرناه ، فلسنا نكون على شىء من التثبت إن ظننا أن مانراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك ، فليس هناك مايمنع من أن كائنات حية يجوز أن تكون موجودة حولنا ، فمن الذى كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها ؟ فها هى ذى تتكاثر حولنا بالمليارات ، والدور الذى تلعبه فى حياة جميع الأجسام من الخطورة بمكان ، فالمظاهر لاتكشف لنا الواقع ، ولا يوجد إلا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هى فكرنا ، والموجود الذى لايمكن النزاع فيه فى الإنسان هو عقله . ونحن نقول : ضع هذا الكلام الصادر من صميم العلم أمامك ، ثم تأمل فى أقوال الحمقى الذين يتوهمون أنهم نالوا الدرجات العلى من الثقافة لمجرد قولهم : نحن إنما نتبع ما تقدمه لنا الطبيعة ، فلا نعتقد إلا بما نحس بوجوده بإحدى مشاعرنا . وإذا صح لهم مايدعون كان عليهم أن ينكروا غالب مقررات العلوم الطبيعية التى يشيدون بذكرها ، ويفخرون بالانتماء إليها . فأين هم من هذه الموجودات التى ثبت وجودها لأهل العلم ولا يمكن الاهتداء إليها بحاسة من الحواس الخمس ؟ . إن ماظهر إلى الآن من حوادث الكون لايمكن أن يقارن بما

خفى منها «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وفيما ثبت وجوده اليوم بالدلائل القاطعة مالا يمكن رؤيته مطلقا ، لقصور حواسنا عن التأثر به ، وقد اهتدى إليه العلماء اتفاقا ، فمكتشف أكبر القوى العالمية وهى الكهرباء التى ننعم اليوم بآثارها فى أهم مرافقنا . لم يوفق إلى اكتشافها إلا عرضا وبغير قصد . وذلك أن أحد مساعدى العالم «جالفانى» الإيطالى المتوفى سنة ١٧٦٨م شاهد اضطرابا فى عضلات ضفدعة قتلت حديثا ، فأخبر بذلك أستاذه ، فأتى بضفادع وقتلها ثم علقها على قضبان من النحاس ، فشاهد حدوث اضطرابات فى أعضائها كلما مست بقطع من الحديد ، فكان ذلك سببا فى اكتشافه الكهرباء الكائنة فى الأجساد . فلما نبغ العالم الطبيعى « فولتا » تابع أبحاث أستاذه فى الكهرباء فتوصل إلى اكتشاف العمود الكهربائى الذى أمكن به توليد القوة الكهربائية واستخدامها فى المنافع الإنسانية على الوجه المشاهد اليوم . أعلمت كيف قابل الناس مباحث جالفانى فى العصر الذى كان يعيش فيه ؟ لقد قابلوها بالاستهزاء والسخرية وسموه بسبب تجاربه فى الضفادع بمرقص الضفادع . فكان جوابه لهم أن قال : اسخروا منى ماشئتم فهذا لايمنع أنى على وشك اكتشاف أكبر القوى الطبيعية . ولو أصر الإنسان على القول بأنه لا يسلم إلا بما يرى لظل إلى اليوم يقول بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض ؛ فانه يرى ذلك رأى العين ، والواقع أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . فانظر إلى أى حد يخطىء الحس فى تقدير أكبر الحركات المرئية وأشيعها ؟ وإذا صدق هذا فى المرئيات أفلا يكون أولى أن يصدق فيما دونها من الحقائق الكونية ؟ قبل أن يكتشف العلم ظاهرة الانكسار فى الأشعة الضوئية عند ماتمر فى مناطق مختلفة الكثافة ، كان الناس يعتقدون أنهم متى رأوا قرن الشمس بارزا من الأفق ، حكموا حكما قاطعا بأنها قد ظهرت لنا ، والحقيقة أننا نرى الشمس قبل أن تبرز من وراء حجابها بسبب انكسار أشعتها فى الهواء وهى تخترق طبقاته المحيطة بالأرض ، فإن شعاعها لهذه العلة يصل إلى أبصارنا قبل أن تبرز الشمس للعيان بدقائق معدودة . وظاهرة الانكسار الشعاعى هذه نستطيع أن نثبتها

لـكل إنسان بتجربة بسيطة ، وذلك بأن يضع ملعقة فى كوب مملوء بالماء ، فيرى أن الملعقة التى عهده بها مستقيمة قد ظهرت معوجة . والسبب فى ذلك هو ماذكرناه من أن الأشعة التى برزت من أجزائها المغموسة فى الماء قد كابدت انكسارا بدخولها فى الهواء لاختلاف كثافتيهما ، فتظهر الملعقة معوجة على خلاف حقيقتها . ثم إن حواسنا هذه التى نعول على أحكامها كل التعويل تضللنا فى أكثر ما تصلنا به من المحسوسات . فقوة الإبصار ، وهى أكبر القوى التى نعتمد عليها ، ترينا الشمس وهى أكبر من الأرض بنحو مليون وأربعمائة ألف مرة قرصا صغيرا سابحا فى الفضاء ، وترينا النجوم وهى أكبر من الشمس بملايين المرات نقطا لامعة فى الفضاء ... وقال « كاميل فلامريون » الفلكى فى كتابه « الاعتقاد بالله من النظر فى الطبيعة » : إذا أعلنا أن جميع أنواع النباتات والحيوانات لم تخلق خلقا مستقلا على صورة مقدرة لـكل منها ، وذهبنا إلى أن هذا التنوع فى الصور فعل قوة متحدة بالمادة ، فهل يمنعنا ذلك من الاعتقاد بوجود عقل خالق ، وبظهور غرضه وقصده فى الخليقة ؟ ألسنا نكون متعمدين عدم التدبر بعين البصيرة إذا رفضنا اعتبار هذه القوة الملازمة للمادة نتيجة عقل مدبر لها ؟ ألسنا نكون عميا إذا رفضنا الاعتراف بهذه الدلائل الناطقة على وجود عامل قادر أزلى فى الـكون ؟ وقال « ادوارد ملن » : يجب أن يدهش الإنسان لما يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة .. ومن عجب أن نرى رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الـكونية ليست إلا نتائج الاتفاق والخبط ، أو بعبارة أخرى : نتائج الخواص العامة للمادة ، وأثر لتلك الطبيعة التى تـكون مادة الخشب ومادة الأحجار . وأن إلهامات النمل وأسمى مدركات القوة العقلية الإنسانية ليست الا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الـكيماوية التى بها تجمد الماء واحتراق الفحم ، وسقوط الأجسام . ان هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم « العلم الحسى » قد دحضها العلم الصحيح دحضا ، فإن العالم الطبيعى لا يستطيع أن يقول بها أصلا . واذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة ، يسمع بغاية

الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ، ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية » .

إنه ليجب على الإنسان إذا لم يكن مؤمناً بالله أن يؤمن به وبوجوده وبقدرته وبحكمته ، يقول « أوجست ساباتييه » :

لماذا أنا متدين ؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جواباً واحداً وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فإن التدين حاجة من حاجات وجودى . يقولون لى : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسى . ولكن تعليل المسألة على هذا الوجه يقهقرها ولا يحلها . إن الحاجة إلى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للإنسانية أكثر قوة . فإن الإنسانية ليست بأقل منى تعلقاً بالعاطفة الدينية . فعبثا يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها ، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى ، وسدى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلا يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران ، فإن الدين لا يزال باقيا وماثلا فى جميع أدوار الثقافة العلمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من سطح الأرض ، ولكن جذوره العتيقة أعادته إلى ما كان عليه قويا ، فمن أين أتت الدين هذه الحيوية التى لا ينضب معينها ، وما هى علة خلود الدين وعموميته ؟ إن كلمة الدين نفسها لا تعين الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعيينا سيئاً جدا ، لأنها تحيط هذه الظاهرة بآراء تبعية ، وأحيانا غريبة عنها ، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة . وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدينا . وليس لها مرادف لا فى لغة العبرانيين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلتيين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء الأسر الإنسانية التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديدا

فيها . إن روما هى التى فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها . فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد . ولما دخل القرن الثالث شاهد العالم ضروبا من التنصير ، قد تتفق وروح الإنجيل . فعرف لاكتانس الدين بقوله : هو العلاقة التى تجمع بين الإنسان وربه ولكن هذا اللفظ عند كتاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق . فبدلا من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين ، ويشير إلا أنها تعنى ظاهرة نفسية متنزلة من الروح ، حدها من ناحيتها الظاهرية ، معتبرا إياها مجموعة تقاليد ونظم اجتماعية موروثة عن الأقدمين . وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هذا المعنى ذا الأصل الرومانى . والدين لدى السواد الأعظم من الناس إلى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية ، ونظما سياسية . فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية . وتقوم على نظام من الرتب الكهنوتية ، لتهذيب الأرواح الآدمية . هذا هو الشكل الذى أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحققت وجودها فى العالم الغربى . والسلطان الذى تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارة ، تقر ما ذهب إليه المسيو برونتيير حينما أراد التنبيه على سمو الكاثوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى ، متابعا فى ذلك « بوسويت » ، بقوله : إنها أكمل شكل لحكم الشعوب . وفى العصور والبلاد التى تغلب فيها هذا الوصف السياسى للدين ، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيله لتولد الدين فى الجماعات الإنسانية . فقد قالوا : لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب ، فقد اخترع إذاً للوصول إلى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والأباطرة الذين أرادوا بهذه الوسيلة تثبيت سلطانهم ، وضمانَ استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون والفلاسفة فى القرن الثامن عشر . ولم تعوز المدافعين عن هذا الرأى الأدلة

عليه . فمن المحقق أن الدين كثيرا ما سخر لخدمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى فى تواريخ جميع الأديان . ولكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عددها ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هى التى أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فإذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فأنا أسألهم بدورى : وما الذى أوجب وجود القساوسة ؟ أليس لأجل أن توجد القسيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع فى الشعوب كلها مشاركة عامة فى اعتباره ، يجب أن يكون ثاويا فى سويداء القلوب عاطفة دينية ، نحلت هذا الاختراع صبغة مقدسة ؟ نعم ، يجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القسيسية هى التى تفسر وجود الدين ، ولكن الدين هو الذى يعلل وجود القسيسية . والنظرية التى وضعتها الفلسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر تماسكا . قالوا إن الدين الذى كان موجوداً فى أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيراً ساذجا للظواهر الطبيعية العجيبة التى كانت تدهش الإنسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الأحقاب لصور أخرى أرقى منها وأكثر إتقانا . ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين يمنحون حياة روحية لكل ما يحيط بهم . فهم يتخيلون وجود ارادات فعالة خلف جميع الظواهر التى تثير عندهم الخوف أو الرجاء . وبناء على هذا عمدت مخيلة الأناسى الأولين الى ملء الوجود بعدد لا يحصى من الأرواح الخيرة والشريرة ، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الخفية فى كل صغيرة وكبيرة مما يصيبهم . وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية ، وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية . ولكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذى تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها . والقول بأن الدين ضرب من العلم ، يعتبر خطأ لا يقل فى خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية

تكون مصاحبة دائما لشيء من العلم ، ولكن هذا العنصر العقلي مهما ظهر أنه ضروري للعقيدة ، فهو ليس في شيء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتغير على الدوام في أدوار الانتقالات الدينية . والصيغ المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هي وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر في أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأتى لأية صورة خارجة أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التي مر بها الفكر الإنساني فيما ذهب إليه « أجوست كومت » وتلاميذه ، وهي : الدور اللاهوتي في العصور الأولية . ودور ما وراء الطبيعة في القرون الوسطى ، والدور العلمي في العهد الراهن ، فإذا كان الدين في جوهره علما ، لكان سرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها ؛ والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا في شيء هو بقاء الدين وظهوره في جميع العهود ، وفي درجات من الثقافة متباينة كل التباين، والذي يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ولكنها توجد كلها في وقت واحد ؛ فهي لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ . ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الإنسانية . فإنك تجدها مجتمعة على درجات متخالفة في العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وارسطو ، وتجدها في العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وايبنتز وكنت وكلود برنار وباستور وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمي الذي لا يرمى إلا إلى تحديد الظواهر وشروط حدوثها في الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ،وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ، وليس من الدين أيضا الحاجة الاعتقادية التي إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيا للغريزة التي تحمل كل كائن على

التشبث بالخلود . فكيف لاتظهر هذه الميول المختلفة للنفس فى آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهى موجودة معا فى الجبلة الإنسانية وفى كل زمان ؟ فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياع الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟ .

إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق مانقول . فزعيم الفلسفة الوضعية « اجوست كومت » الذى كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية فى النفس الإنسانية ، توج مذهبه وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها بقلة مهارة على النظام الكهنوتى ، وطقوس الكاثوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لقديسين ، ولها مخلفات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس ليس بأقل عصمة من الحبر القائم فى روما ، الأمر الذى هاج على أجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه ، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هى أن اجوست كومت بعد مافرغ من بناء مذهبه الاجتماعى ، أدرك الدور الذى تقوم به العاطفة والغريزة الدينية فى حياة الشعوب ، فرأى أنه لايستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلة إلا بالدين . فأتاها به على أسلوبه" إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة فى مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن اجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأحدثوا ماأحدثوه ، فتكون الطبيعة فى سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم . ولسنا بحاجة لإطالة الكلام فى هربرت سبنسر ، فالناس يعلمون ماآل إليه مذهبه من قوله « بالموجود الذى لايمكن إدراكه » ومن اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تند عن مآخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك ـ فى نظره ـ العلة المفسرة لكل تطور ، والينبوع العد الذى يستمد منه كل شىء وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، ألسنا نرى فى هذا القول المذهب القديم فى وجوب وجود علة

أولية للوجود ، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون ؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الإنجليزى على هذا النحو إلى إعلان الدين الخالد وإلى حصر الحياة العقلية للإنسان فى جهدين أصليين أولين : أولهما الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها ، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للوجود العام ؟ أما ليتريه فأمره أشد تأثيرا على النفس . فبعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة ، ووصل إلى نهايتها القصوى ، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة إلى البحر ، وهنالك وجد نفسه محاطا بالمساتير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له ، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة ، فوقف يتأمله ، فاعتراه خشوع أمام هـذا المجهول ، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه ، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام . فسألت نفسى عند ذاك : ما معنى هـذا التأمل فى هـذا المستور الكبير إن لم يكن انفجارا فجائيا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها ؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الموجود الذى لا يمكن إدراكه ، أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة ؟ . ويقول شاعر لاتينى : « إن الخوف هو الذى ولد الآلهة » ، وهذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح . ذلك أنه مما لا مشاحة فيه أن عاطفة التدين تنبهت فى قلب الإنسان تحت تأثير الخوف الذى سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله . فإنه وقد قذف به عارى الجسم ، ومجردا من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان نارا تتلظى ، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقعاً فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر . نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل ، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شىء من الدين ، إذا أنه يشل القوى ، ويطمس العقل ، ويسحق الإنسان . فلأجل أن يكون الخوف خصبا من الناحية الدينية ، يجب أن يلابسه من لدن وجوده شعور مضاد له ، أى بصيص من الأمل . يجب

أن يشعر الإنسان وهو بين براثن الوجل بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عونا يدفع عنه ما يتوقعه من خطر . وبناء على هـذا فالخوف لا يولد الدين عند الإنسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل ، ويلهمه الدعاء الذى يفتح لنوازله منسرباً . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من الينبوع الذى نبحث عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة ، لا فى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الإنسان من الدين هو نجاته من العطب ، فإذا ظهر أحيانا أنه يحاول بواسطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية .

أليس قول الله عز وجل : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هو الإعجاز الأكبر ، لأن هذه القضية القرآنية قد سبقت بحوث العلماء والفلاسفة بأكثر من ألف سنة ؟

إن الدين هو الكوة التى ينبثق منها النور للإنسان من خلال الصخور المطبقة عليه ، والظلمات المحيطة به ، يقول أوجست سباتييه : لم يكن الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج وبالتضاد فى حياته الباطنة ، لأنه يحمل إليه حلا نظريا لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذى يؤتينا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القبيل العملى ، لا من طريق معلومات جديدة . أى باعادتنا إلى الأصل نفسه الذى تتصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبى ، هو من إحياء الثقة فى نفوسنا بذلك الأصل الذى نشأت منه الحياة ، وبالغاية التى تنتهى إليها . ومع ذلك فإن هذا العمل المنجى لا يفرضه الدين علينا من طريق الإلزام ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فإن التمسك بالحياة ليس بشىء غير غريزة حفظ

الذات فى العالم الطبيعى ، وهو يؤثر فى العالم العقلى على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة : ذلك أنها عمياء وجبرية فى الكائنات الحية ، ولكنها تصطحب بالوعى والإرادة فى الحياة الأدبية . وهى باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين فى النوع البشرى . هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث فى الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعى الشخصى ، وهو الشعور بتبعية الإنسان للكائن العام . فمن الذى فى وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ماقدر علينا قد بث فينا خارجا عنا وفى غيبتنا فحسب ، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا فى ناحية من الأرض فى زمان ما موقرين بموروثات وقوى لم نستشر فيها ولم نخترها ؛ ليس هذا فحسب ، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا فى أنفسنا ، وفى أى مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميمة لذاتنا ولحياتنا ، خارج أنفسنا فى الكائن الأول نفسه . فلأجل أن يكون الإنسان متدينا يجب عليه قبل كل شىء أن يعترف وأن يرضى ، فى ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصى للأصل الأبدى الذى نشأ منه وبارتباطه به ، وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلا معه . فهذا الشعور بتبعيتنا يهبنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى للعقيدة بوجود الخالق . وهذه العقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدها الأقصى من الكمال ، ولكن موضوعها لا يزايل ضميرنا قط . وقد لقيت هذه العقيدة فى روعنا ، بل فرضت علينا فرضا قبل إجالة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول . وعلى هذا فيمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهى : أن الشعور بتبعيتنا هو الشعور بوجود الله فينا هذا هو الينبوع العميق الذى تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها ، ولكنها نبعت منها هى والدين فى آن واحد ، وبتأثير الدين نفسه . ومع هذا يجب أن نقدر بأى ثمن قبل فكر الإنسان هذه التبعية

حيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية ونازعها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة للفكر هي أن يفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لاأن يخضع لها . فمن الذى لايذكر فى هذه المناسبة عبارة باسكال : ليس الإنسان إلا قصبة واهية ،فهوأضعف شيء فى الوجود ، ولكنه قصبة مفكرة .فاذا كان الوجود يستطيع تحطيمها ، فانها مع ذلك أسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة عن هذاكله ؟ فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الإنسان . إنالعظمة السامية للعقل حيال مجموع الأشياء لايمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا بعامل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود . فإن ضميرى لايستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام أصلا مشتركا وغاية واحدة . وديكارت لم ينخدع فيما قرره ، فإن محاولة الفكر الإنسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته . ودائرة حياتى العقلية التى انفصمت من المنازعة بين شعورى الذاتى والحوادث العالمية ، عادت فالتأمت بواسطة حد ثالث اندمج فيه الإثنان الآخران ، وهذا الحد الثالث هو إحساسى بتبعيتها جميعا لله أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين فى روح الإنسان . بعيد المدى فى الفلسفة والتجريد ، بحيث لايمكن أن يصح على الناس عامة ؟ فاذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى فى عهود الثقافة العلمية العالية ، فهل يستطاع أن يفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الإنسانية ؟ إن الذين يدلون بهذا الاعتراض يثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الإنسان وحوادث الوجود فى أول عهد الإنسان بالظهور كما هو فى آخره ، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفى غاية الشقاء وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمرة من ثمرات المنطق ، حتى إن الإنسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه يتجلى فى الأهوال التى تساور

المتوحش ، وفى الانقلابات الطبيعية التى تحدث بين يديه ، وفى أخطار الغابات وبوائقها ، كما تتجلى لنا نحن فى ارتباكات أفكارنا أمام مساتير الوجود وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس، ولكن الهزة الدينية التى ترج الإنسان وتزلزله ، هى فى حقيقتها واحدة لاتختلف . وباسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالحرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به . ألم يقل : إن الصمت الأبدى لهذا الفضاء الذى لا نهاية له يرعبنى . و (كنت) وهو محصور فى اليأس داخل الحدود التى لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو شوبنهور الذى تأدى إلى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والإرادة ، ألم يكونا مبهظين تحت آصار الشعور بالعجز الأشد إيلاما للنفس ؟ وعند ما كانا يقلعان عن النظر لأجل أن يستطيعا العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم ، تكون تنهيدة على شفاههما هى مقدمة للدعاء ؟ وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال ، لأن ينبوعه الذى يتفجر هو منه ، فضلا عن أنه ينضب فى صميم الروح ، فإنه على نقيض ذلك يتسع ويعمق وتغزر مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة والذين يتوقعون نضوبه يحسبون من الدين ماليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة .

(٥)

والإسلام ديننا الكريم ، وهو دين الإنسانية الخالد ، قد محى ضلال الشرك والوثنية محواً تاما ، وأزال شوائب الجحود والكفر والضلال ، وأدران إنكار وجود الله واليوم الآخر ، بما ليس بعده بيان ولا برهان ، ولا غرو فهو دين الإنسانية عامة ، ودين النهضة البشرية والإصلاح والسلام كافة ، وإذا كانت الإنسانية تتدرج نحو الكمال بقدم ثابتة ، وخطى متزنة . والجماعات البشرية كلها وإن تناحرت وظهر أن بعضها يهدم بعضا ، فإنها فى الواقع مسخرة لقوى تمخضها مخضا لتستخرج منها خلاصة ما أودعته فطرتها من

خصائص كريمة وخلال عالية . وقد تزول أمم وتقوم أمم ، وتبيد طوائف وتنشأ طوائف ، وتزلزل الأرض تحت أقدام الجماعات حتى ليظن الناظر إليها أن العالم مدفوع لدمار محقق ، وخراب لا مرد له . والحقيقة أن أجزاءه تتفاعل تفاعل المواد الكيماوية ، لتخرج مركبا جديداً أجمع منها جميعاً للمزايا المتفرقة فيها ، ليؤدى عملا جديدا لا يستطيع أن يضطلع به من كان قبله ، ويكون مقدمة لغيره من الترقيات الصورية والمعنوية التى يأخذ بعضها بأيدى بعض ، متكافلة على تحقيق وعد الله فى الأرض . ولقد عاش الناس آمادا طويلة متفرقين شيعا ، ومتخالفين أصولا ومبادىء ، وكان العقل الإنسانى ملتاثا ببقايا السذاجة الأولى ، يتخذ من هذا التشيع والتخالف عاملين قويين على توسيع شقة الانقسام البشرى . وقد اتخذوا الأديان بواعث للمضى فى هذا التناحر إلى أقصى حد . وما زالوا جارين على هذا السمت حتى تمهدت سبل الاتصال بين الشعوب ، وتسهلت وسائل التعارف بينها ، ونجمت حاجات حيوية تدعوها لتبادل الثمرات ، وتداول المنافع ، فنشأ للأمم شعور لم يكن من قبل ، وهو وجوب قيام صلة بينها تسمح لها بالتكافل فى الحياة ليكمل بعضها نقص البعض الآخر فى أعم الحاجات وأبسطها ، فنشأت التجارة العالمية ، فكانت وسيلة للتفاهم ، والتفاهم يدفع إلى التسالم ، فكان هذا عهدا جديدا فى حياة الأمم ما زال تدفع عوامله بالشعوب بعضها نحو بعض ، ممهدا لأكبر عهد من عهود البشرية ، ألا وهو القيام على أصل جامع يؤلف بين الكافة فى حظيرة واحدة ، إخوانا على سرر متقابلين ، ليقطعوا مراحل هذه الحياة ، مجردين قواهم كلها للتكمل فى العلم والعمل ، لا متناحرين يبغى كل فريق لخصمه الفشل ، ويبيت له الويل والخبل . ولد هذا الشعور فى العالم ، ولكنه ولد خيالا يطوف ببعض الرءوس ولا يستقر فيها ؛ إلا أنه كان يزداد على مر الأيام قوة ، إلى عهد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . فى هذا العهد أراد قيوم الوجود سبحانه وتعالى أن يجعل من هذا الشعور الخيالى حقيقة واقعة ، فشرع للناس الإسلام ، وأمر بإشاعته فى جميع أكناف الأرض ، وافتتح به

عهداً نهائياً للبشرية لم تكن تتخيله من ناحية الدين قط ، لأن كل أمة لقنت أن الأديان كلها مزورة إلا الدين الذى هى عليه ، فمن أية جهة تأتى بمجموعها الوحدة المرغوبة من قبله ؟ ذلك كان من المحالات العقلية ، فكان بعض الفلاسفة يتخيل هذه الوحدة من ناحية التخلى عن جميع الأديان . وكيف كان يعقل ذلك فى أمم اختلط حب الدين بدمها وآثرته على نفسها وولدها ؟

فكيف حل الإسلام هذه المعضلة الخطيرة فى حدود العقل ومنطق الأشياء ، وسوغها للأذهان إلى حد أن صار ليس بين خصم الإسلام وقبوله والتحمس له إلا أن يسمعها بينة من الداعى اليه ، وأن يفهمها حق الفهم ؟ حقاً إن هذه لمعجزة لدين يعلن أنه آخر الأديان الإلهية ، وأنه الدين العام لمجموع البشرية ، وسيصبح دين الكافة غير منازع ، بعد أن تتجلى للناس آياته فى الآفاق والأنفس الإنسانية . أعلن الإسلام أنه فى أصوله الاعتقادية ليس بدين جديد ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى نوح ، ثم تابع وحيه إلى جميع المرسلين من بعده ، فإذا كان الناس يرون أمام أعينهم أدياناً مختلفة فى هذه الأصول ، فإنما حدث ذلك من تحريف قادتها لها ، وتحميلها مالا تحتمله من أهوائهم وأوهامهم بغيا بينهم وقد أرسل الله به نبيه محمدا فى آخر الزمان ، خالصاً من كل ما أدخل إليه مما ليس منه ، ليقوم الناس على أصل جامع ، فينعموا بمزايا الوحدة ، ويتوجهوا بجملتهم لتحصيل الكمال الذى وعدت به البشرية . ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم » أى لا محاجة

ولا خصومة . الله يجمع بيننا وإليه المصير » . وقال تعالى : « إن الدين عندالله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

إذا ألقيت هذا البيان إلى كائن من كان ، أساغه عقله ، واطمأن إليه قلبه ، وحن له شعوره ، وإلا فهل يعقل أن الله يوحى أديانا متخالفة فى أصول العقائد لأمم تتشابه فى عقولها وقابلياتها ووجهاتها ، على حين أن الحق لا يتعدد ، ونواميس الكون لا تتغير ؟ فإذا لم يكن هذا التخالف فى الأديان من جنايات قادة الأديان ، فجناية من هو؟ وهل يعقل أن يتوحد العلم الكونى فى كل مكان ، حتى تكون أصوله فى أية بقعة من بقاع الأرض هى أصوله فى سائر بقاع العالم ، ويكون الدين فى أصوله ذا وجوه مختلفة ينقض بعضها بعضا ، ويبغى بعضها على بعض؟

والذى ضمن للدين الإسلامى الخلود أمران : الفطرة الإنسانية ، وسلطان العقل الكامل . والناس جميعا يتفقون فى مقتضيات الفطرة ، فما يراه إنسان بفطرته حسنا يراه كل الناس حسنا ، وما يراه قبيحا يراه الكافة قبيحا ، اللهم إلا إذا تعمد الآباء والمربون إفساد هذه الفطرة ، وشرط الإسلام أن تبقى الفطرة سليمة من الشوائب التى تحولها عن منهجها . وأما سلطان العقل الكامل ، فلا سبيل لأكبر قوة فى الأرض أن تسلبه إياه ، فإنه قبس من نور الله ، ونفحة من حكمته ، وقد حاول طمسه قادة الأديان السابقة أجيالا ، وعاقبوا من يحوم حول حماه بالحديد والنار قرونا ، فأظهره الله على جميع القوى الظلمانية التى جردت لمكافحته ، وتجلى جوهرا خالصاً لم يمسسه سوء ، وهو اليوم فيصل التفرقة بين الحق والباطل فى العالم كله . اعتمد الإسلام على هذين الأمرين الطبيعيين ، اعتماد البناء على ركنيه الركينين ، فقال عن الفطرة الإنسانية : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »، فالخالق جل شأنه يبين للناس أن الدين

هو ما جبلت عليه النفوس من الفطرة الإلهية ، ولكن بشرط أن لا تشاب بتعاليم تتحكم فيها وتوجهها غير وجهتها الطبيعية . وهذه الفطرة الخالصة من كل شوب : من هوى ، أو وهم ، أو تقليد ، أو تعليم ، هي الإسلام نفسه ؛ إلا أن هذا الموقف يحتاج لمقوم يقومه ، فإن الناس يتخالفون فى الغرائز الطبيعية، وفى الصفات الوراثية : فمنهم المتثبت والمتسرع ، والبعيد النظر والقصيره ، والكثير العلم والقليله ، فكان لا بد من حكم يرضى الناس جميعا حكومته ، ولا يشذ عنها إلا مفتون أو متعنت . هذا الحكم هو العقل . ولما كان هذا العقل مناط التكليف ، وفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وجب أن يكون بحيث يصلح لهذه المهمة الخطيرة . فلذلك حث الحق سبحانه وتعالى على تكميله ، بالنظر فى الأعلام التى نصبها فى الكون لتكميله ، والمنار التى أقامها لهدايته ، ليقوى على ما هو بصدده ، ويأمن العثار فى حكمه ، ولا يلتبس عليه الباطل فى تلونه . فهذا الجمع بين حكم الفطرة المعدلة بحكم العقل الكامل ، هو الأساس الدينى الذى بعث الله خاتم أنبيائه لوضعه وإعلانه بين الأمم ، لتتوحد فى أديانها وعقائدها ، كما هى متوحدة فى إنسانيتها وفطرها وعقولها . لقد نجح الفيلسوف الإنجليزى (باكون) واضع الدستور العلمى قبل نحو ثلاثة قرون فى توحيد العلم فى كل بقاع الأرض ، ببنائه على المشاهدة والتجربة ، وعلى التحليل والتركيب ، وبإخراجه جميع الآراء والظنون من مادته ، فإذا كان (باكون) قد استحق إعجاب العالم كله به لتوفقه إلى هذا العمل العظيم ، فإن الإسلام يستحق أكبر ما يتصور من الإجلال والإكبار لإيحائه إلى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هذا الدستور الدينى الذى نحن بسبيله ، فجمع به بين أمم لا تغرب عن بلادها الشمس ، وسيجتمع عليه سائرها ، متى وفق الله المسلمين لإعلانه للناس فى هذه الصورة الباهرة ، ومتى أراد الله أن يتم هذا الإصلاح الكبير فى الأرض .

ولفظ الإسلام يدل بمعناه على الخضوع والتسليم لله عز وجل ، ويدل كذلك على الدين الواحد الحق الذى أوحى به الله إلى البشر كافة . ويدل كذلك على

أداء العبادات المطلوب أداؤها من المسلم : كالصلاة والصيام والزكاة . ويدل كذلك على شريعة محمد عليه السلام كلها .

فبالاعتبار الأول لايكون للإسلام ميزة على الأديان ، ولا لإنزاله من موجب فى نظر الإنسان . ولكنه بالاعتبار الثانى تكون له مهمة عالمية عالية ، وهى إعادة الوحى الإلهى الأول إلى صورته الصحيحة ، خالصا من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ إليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد إلى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعبلات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى مترددا بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركا ما يترجح عنده أنه من الموضوعات البشرية . فالإسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحا عاما للأديان . وموحدا لها ، ليصبح للإنسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسلمات المنطقية لاتتعدد لدى جميع أفرادها والذى يقرره الإسلام فى هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الإسلام ، أى الاستسلام لله ، والخضوع له ، والتخلى عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع مايأمره به الله ، وهو لايأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة . ويصلح به أمر المجتمع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » ، ثم بين الله تعالى أن هذا الدين هو دين الله القويم ، وهو العروة الوثقى لا انفصام لها ، وهو الذى تجتمع عليه الإنسانية فى وحدة عامة . ولا معدى عنه للعالمين جميعا : « أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ، قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» ، وذكر القرآن الكريم أن من الناس من يحاول فصم عرى الإنسانية ، فيؤمن ببعض المرسلين ، ويكفر ببعض ، تعصبا لقوميته ، أو مشايعة لنزعة مذهبية منبها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقا ، « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون

أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

إن الإسلام ليس هو مجرد ناحية من نواحى الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية يدبر اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطىء الذين وصفوا الإسلام بأنه « الجامع » . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الإسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمدا مع علاقته بالله — جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة . فأول ما نلقاه من الوحى جعله رسولا ونبيا وداعيا من الله إلى عباده ، لا يشاركه أحد فى قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح شئونهم الدينية والدنيوية . وقد غير قبلة الصلاة طبقاً للوحى ، فحولها من بيت المقدس إلى مكة . وكثيراً ما كان يتلمس الوحى والإلهام فى إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضة . وقد نزلت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية . ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا « محمديين » أو مسلمين ، وشايعه تلاميذه وأصحابه ومن قلدهم وتابعهم فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية والسياسية ، وتمسكوا بمبادئه وقلدوه فى كل أعماله ، وكان تقليدهم له مبنيا على القرآن . وإن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطا بتسمية القرآن ، يلوح لى أنهم معدون جغرافيا وروحيا لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وافريقيا . فهذا الارتباط الذى لا بد منه دون شك لحفظ التوازن الروحى للعالم ، وهذا الموضع من قلب الكوكب الأرضى من جاوة والهند إلى المغرب ، يظهر أنه اختص هذه الكتلة المؤلفة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز الثقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية العناصر المختلفة .. وقد صار ذلك أشد وضوحا

اليوم — فى أوروبا التى يمزق بعضها بعضا أمام نظرها الآن . وإن الضمير الإسلامى يستنكر ، جريا على مبدئه وغريزته ، كل مذهب يدعو إلى العنصرية وإلى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، وإلى أية حكومة استبدادية ، ذهابا إلى أن الله قدس الشخصية الإنسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الإسلامى المرموز إليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضمانا لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدةوجودها من واجب الوجود المطلق، التى يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الأنبياء ، تتساوى كلها فى قيمتها وفى تلاشيها أمام رب العالمين ، ولكن ما أوتيته من الإلهام الإلهى لاينسخ . وقد وجه الإسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد منه بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أربعة آفاق الأرض كل سنة محرمين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عراة الأجسام يتصببون عرقا ، ويطفحون عذابا .

(٦)

وسورة الأنعام لها قدم صدق فى الرد على الشرك والمشركين ، وكذلك سورة الأعراف ، هذه السورة الجليلة ، إحدى السور الطوال ، التى نزلت مقررة لكل ماذكر فى السور التى نزلت قبلها ، والتى كثر فيها خطاب الله عز وجل لبنى آدم : يابنى آدم لايفتننكم الشيطان . يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم . يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون .. وقد كانت الأعراف كذلك أطول سورة نزلت فى ذلك العهد ، وأكثر ما نزل قبلها كان من سور الجزءين الأخيرين من سور القرآن الكريم .

وقد نزلت هذه السورة فى العهد الأول للدعوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأساسى لصرح الإسلام ، ويدعو إلى توحيد

الله ، بالتبشير والإنذار ، والتذكير بالمثلات التى خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد نزولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذلم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوى تحت لواء واحد فتحتاج إلى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحق ، جرىء فيما أمره الله ، يرن فى أجواء مكة وما حولها ، ويدوى فى آذان قوم عاكفين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العالى الجرىء يدعو إلى توحيد الله ، وإلى التحرر من ربقة الأوهام ، وإلى السمو بالكرامة الإنسانية والعقل البشرى عن وهدة الشرك التى ارتكس فيها الإنسان فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

والسورة الخطاب فيها لأبناء آدم ، للناس جميعا ، لا للعرب ولا للمسلمين وحدهم ؛ حتى وهى تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك فى أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنساهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون » . وكذلك لا تجد فيها أحكاما ولا نظما ، ولا تفصيلا لعبادة من العبادات ، وإنما تجدها تتحدث عن المبادىء العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تدعو إليها الناس جميعا ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادىء التى لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالم السلم ، وشملته الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون » « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،

والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » ، « ولكل أمة أجل » ، « لا نكلف نفسا إلا وسعها » ، « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ، «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لايخرج إلا نكدا » ، « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم » ، « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » ، « فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » ، «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

وسورة الأعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الإنسانية من يوم نشأتها ، فتذكر خلق الإنسان وتصويره ، وتمكينه فى الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد فطرى بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا بلى » . وتذكر آدم وزوجه ، وتأثرهما بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجتهما مما كانا فيه ، وتضع العلاج الذى يقى الإنسان شر التأثر بالهوى والشيطان : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . والسورة أيضا تتلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق فى فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ، وتذكر فى ثنايا ذلك مانزل بالأمم التى عتت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلكوا بالصيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة . ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من العذاب «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات » . ثم هى تفئ على ذلك بآخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهى الخالد ، فصل النبوة المحمدية : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله

إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون » . هذا تعريف مختصر بسورة الأعراف . وفى سورة الأعراف تنويه بالقرآن مابعده من تنويه ، وتفخيم لقدره ، وتقرير لنزوله على محمد صلوات الله عليه وسلامه لغاية نبيلة ، وهدف سام ، هو هداية البشر وإخراجهم به من الظلمات إلى النور « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحي الذى ينزل عليه: « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ، ومن جهة إيمان قومه به . ومقدار حرصه على ذلك ؛ ومن جهة تكذيبهم إياه ، وما يلاقى من إعنات ومشقة . كل هذه الجهات كانت مبعث حرج وضيق ؛ وكان شأن الله معه ـ وقد تولى أمره ، وكفل له العصمة من الناس ، والإقدار على تبليغ الرسالة ـ أن يخفف عنه آلام ذلك الموقف ، ويتعهده الفينة بعد الفينة بالنصح والإرشاد والتسلية ، وحمل مايلق فى سبيله : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، « قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، « واصبر وماصبرك إلا بالله ، ولاتحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » . ومن هذا القبيل قوله جلت حكمته: « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ، أى إذا كان الواقع الذى تعلمه من قرارة نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله ، فكن عند ثقتك بنفسك ، ولا تدع لتكذيبهم أثرا فى قلبك ، ولا لعدم إيمانهم سلطانا على نفسك ، ولا لثقل الوحي اضطرابا فى قواك ، فالله قد تولاك ، وبفضله رباك ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك » فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة ، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال لتقوم بوظيفتك التى اصطفاك لها الله .

(٧)

هذا وكل الدلائل تدل على وجود الله وقدرته، وعلى كذب الماديين والملحدين فيما يذهبون إليه من نفي وجود الله ، ومن السخرية بالغيبيات ؛ ومتى كان الله موجوداً كانت الرسالة والنبوات والبعث أمورا بدهية ظاهرة واضحة لاتحتاج إلى برهان . وفي هذا الجزء ، أو على وجه التحديد في الربع السابع منه إشارة إلى مظاهر القدرة الباهرة العظيمة التي تدل على وجود الله وإرادته ، يقول الله تعالى : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »[1] . . نعم تبارك الله رب العالمين ، تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . . إن الفلك يتحدث بعظمة الله ، وإن في حقائق السماء تتجلى عظمة القرآن الشماء ، عظمة الله الكبير المتعال « الذي خلق سبع سموات طباقا ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .. سبع سموات تعلو بعضها بعضا ، ومن الأرض سبع مثلهن: « الله الذي خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما »[2] ، هناك في كل سماء كوكب معمور يشبه الأرض ، أو بمعنى آخر هناك عوالم أخرى يتنزل بينها أمر الله كما يتنزل بيننا ؛ ولم يقتصر خلق الله على هذه السموات ، بل خلق من فوقها شيئا عظيما آخر وهو عرش الله كما تدلنا هذه الآية المذكورة سابقا من سورة الأعراف ، وآيات أخرى ، مثل « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ » ، ولكي نعلم مقدار عظمة هذا العرش يجب أن نرجع إلى ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد جاء أن

---

(١) آية ٥٤ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٢ من سورة الطلاق .

أباذر الغفارى سأل الرسول صلوات الله عليه عن الكرسى فقال له الرسول : « والذى نفس محمد بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فى فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » . أى أن السموات السبع والأرضين السبع إذا بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة الملقاة فى صحراء كبيرة ، وكذلك قبة الكرسى إلى العرش كحلقة فى صحراء واسعة . إذن فسمواتنا السبع هذه وما فيها ماهى إلا جزء صغير لا يكاد يذكر من هذا العالم الذى لا يعلم مداه إلا خالقه . وهذا ماقاله القرآن ، فلننظر إلى ماقاله علم الفلك الحديث لنرى إلى أى حد يتفقان .. إن علم الفلك مازال بعيدا عن إدراك بعض ما أدلى به القرآن . لقد خلق الله سبع سموات وكرسيا أكبر منهن على الأقل ملايين المرات ، وخلق عرشا عظيما حجمه أكبر من حجم الكرسى على الأقل ملايين المرات كذلك ، وخلق فى كل سماء كوكبا سيارا مثل أرضنا مأهولا يتنزل عليه أمر الله . هـــذا ما قاله القرآن — أما ما يقول الفلك فيدلنا عليه قول بروس بلفن[1] من أن سماءنا ذات النجوم ما هى إلا واحدة على الأقل من ملايين من أمثالها من المجموعات الشمسية المنتشرة فى الفضاء فى جميع الأنحاء ، وفى السماء تسعة آلاف نجم يمكن رؤيتها بالعين المجردة وتشمل مجموعتنا على مائة بليون من النجوم بعضها أصغر من شمسنا وبعضها أكبر منها أضعافا مضاعفة ومن وراء المجرة التى نحن فيها وعلى بعد أعظم مما يستطيع العقل البشرى أن يتصوره مجرات أخرى وهى ليست بعيدة عنا فحسب بل بعضها بعيد أيضاً عن البعض الآخر أعظم البعد ، وقد أصبح معروفا على وجه التحقيق وجود مائة ألف أو أكثر من هذه المجرات وهناك ٥٠٠ ألف مجرة أخرى تحت المراقبة . وليت الأمر قاصرا على هذا العظم الذى يحير الأفهام ، بل إن حجم الكون آخذ فى الزيادة شيئا فشيئا ، وكلما

(١) مجلة المختار عدد ديسمبر ١٩٤٣ .

ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه . وهذا مايقوله عالم ثان مطابقا لما قاله القرآن الكريم : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون[١] » إذن فسماؤنا هذه التي تعتبر المجرة سقفها ماهي إلا واحدة من سموات لايكاد يحصيها العد ، فتبارك الله أحسن الخالقين . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » [٢] ولقد برهن العلم أيضا على وجود كواكب سيارة تدور حول كثير من النجوم ، ولكن مابقى أمام العلم أن يبرهنه ولا يزال عاجزا عن أن يصل إليه إلى الآن هو سكنى هذه الكواكب ، وقد بدأ عهد الصواريخ والفضاء الكونى لذلك ، ولا يزال العلماء يبحثون فى سكنى المريخ فبعض العلماء يؤيده وبعضهم ينفيه ، والمريخ أقرب كوكب سيار يلينا فى مجموعتنا الشمسية ، فكيف يكون الحال إذن مع كواكب النجوم الأخرى والتى فى السموات الأخرى ؟ ولكن عهد الانطلاق الكونى قد يأتى بالدليل على كل ذلك .. وينص القرآن على عدم وجود اختلاف فيما خلق الله من نجوم وكواكب إذ يقول الله تبارك وتعالى : « هل ترى فى خلق الرحمن من تفاوت؟ » هل ترى فى خلقه من اختلاف ، وهذا ما يتآخى فيه الفلك والقرآن . فالنجوم فى شكلها وحركتها متشابهة فهى جميعها كروية وجميعها تدور حول نفسها وجميعا تجرى فى الفضاء بسرعة مخيفة كأنها شظايا قنبلة متفجرة وكأنما بعثرها انفجار هائل ، وهذا ما عناه القرآن الكريم : « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس » [٣] أى أن الله تعالى يقسم بالنجوم الرواجع التى تجرى فى الفضاء والتى تختفى بالنهار تحت ضوء الشمس . وترجع إلى الظهور فى الليل ، ويبين القرآن عظم السموات وعجز الإنسان عن أن يدرك عظمتها أو يسبر غورها بقوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، ويقول تباركت ذاته: « ثم ارجع

---

(١) آية ٤٧ من سورة الذاريات .　　(٢) آية ١١٥ و ١١٦ المؤمنون .

(٣) سورة التكوير آية ١٦ ، ١٧

البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، أى أنك إذا نظرت إلى السماء ارتد إليك طرفك خائبا كليلا وشعرت بالعظمة التى تبهرك ، وهل هناك عظمة تتقطع دونها الأنفاس وتبهر لها الأبصار كتلك العظمة التى لا يمكن أن يتصورها الخيال مهما اتسع ؟ ولكى تعلم بعض الشيء عن الكون وعن النجوم ومواقعها والعظمة التى يحتويها القسم بها اقرأ ما كتبه الأستاذ سمون نيوكوم ، إذ يقول : لو أننا أردنا أن نصنع نموذجا صغيرا جدا للعالم وتصورنا الأرض التى نقطنها ممثلة عليه بحبة من الخردل فان القمر سيكون على هذا النموذج ذرة قطرها حوالى ربع قطر حبة خردل هذه ، وعلى مسافة بوصة منها ، وتكون الشمس تفاحة كبيرة مضيئة على مسافة أربعين قدما ، أما الكواكب السيارة الأخرى فإنها تتراوح فى الحجم من الذرة التى لاترى إلى حجم البسلة ، وتقع على مسافات من التفاحة المضيئة الشمس تختلف من عشرة أقدام إلى ربع ميل ويتحرك كل منها حول الشمس وتتم دوراتها المختلفة حولها فى أزمان تتراوح بين ثلاثة أشهر ، و١٦٠ سنة ، وبما أن حبة الخردل الأرض تتم دورتها فى سنة فيجب أن تتصور القمر مصطحبا إياها مع دورانه حولها كل شهر مرة وتشغل المجموعة الشمسية كلها على هذا الأنموذج مساحة نصف ميل ، وبعد ذلك لابد لنا أن نقطع فضاء مساحة أعرض من قارة أمريكا دون أن نرى جرما سماويا واحدا غير ما نصادفه من مذنبات مبعثرة حول الحافة وعلى بعد كبير من حدود هذه القارة نعثر بأقرب نجم إلينا ويمكن أن نمثله كشمسنا فى حجم تفاحة كبيرة ، ويبعد عنا بمقدار ٢٥ مليون مليون ميل ، أى قدر بعد الشمس بنحو ٢٧٠ مرة ، وعلى مساحة كبيرة أعظم من هذه فى جميع الاتجاهات توجد نجوم أخرى ولكنها فى المتوسط تبعد عن بعضها البعض كما تبعد النجمة الأولى عن الشمس . وعلى ذلك فإن جزءا من هذا الأنموذج الصغير تبلغ مساحته مساحة الأرض لن يتسع لأكثر من موقع

نجمين أو ثلاثة فقط . وإنا لنرى من ذلك أننا لو طرنا خلال هذا الكون مثلا فى هذا الأنموذج الصغير الذى تصورناه فإننا حتما نمر على هذا الشىء الصغير الحقير كارضنا دون أن نراه حتى لو فتشنا عليه دقيقا تفتيشاً ونكون مثل شخص على متن طائرة خلال وادى المسيسبى يبحث عن حبة خردل يعرف أنها كانت مخبأة فى مكان ما على القارة الأمريكية ؛ وحتى تلك التفاحة المضيئة التى تمثل الشمس ربما لانرى إن لم نمر بالصدفة قريبا جدا منها » .

خاتمة هـــذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه هي نهاية هذا الجزء الكريم ، من أجزاء القرآن الحكيم ، وقد فصلنا الحديث فيه ، وتكلمنا على ما احتوى عليه من فرائض وشرائع ، ونواميس وقوانين ، وتنظيم لشئون المجتمع والأمة ، وتحديد لعلاقة الناس بربهم ، وشرحنا ما اشتمل عليه من دعوات إلهية كريمة للتوحيد ومحاربة الشرك والمشركين ، ومن قصص الأنبياء مع أممهم لتحذير المشركين من مثل مصارع هذه الأمم ، ويصل القرآن الكريم إلى الذروة في كل ذلك بيانا وبلاغة وشرحا وحجة وتفصيلا لكل شيء .

وهذا الجزء يحتوى على تلخيص واضح لرسالات كثير من الرسل ، ولرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

ونحن في هذا التفسير نحاول الوصول إلى أعماق الحقيقة ، وبلوغ الغاية في إدراك روح القرآن الكريم وجوهره ، ونجتهد في تفصيل الحقائق ، وتحديد مواضع الحجة : وتبيين مرامى القرآن ، وشرح أصوله وأسراره وحكمته ، وتقريب بعيد مغزاه ، وعميق معناه . وتيسير وسائل فهمه للمتفهمين .

ومن الله نستمد التوفيق والسداد ، ونسأله الهدى والرشاد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول ، وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

للمؤلف

قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء

« « الأندلس - ٥ «

« « المعاصر - ٤ «

الأزهر في ألف عام - ٣ «

صور من الأدب الحديث - ٤ «

رائد الشعر الحديث - جزءان

ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ «

دراسات في الأدب والنقد

مع الشعراء المعاصرين

الذكر الحكيم

الشعر والتجديد

مواكب الحرية في مصر الإسلامية

في ظلال الإسلام - بالاشتراك

التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر

تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً

فهرست الجزء الثامن

من القرآن الكريم

توزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة
٣ شارع ماسبيرو بالقاهرة



دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - تليفون : ٥٠٨٥٢

٣٥